

[عدة الصابرين - ابن قيم الجوزية]

الكتاب : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

تحقيق : زكريا علي يوسف

عدد الأجزاء : ١

عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للعلامة ابن قيم الجوزية

(١/١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور العلى الكبير السميع البصير العليم القدير الذى شملت قدرته كل مخلوق وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الامور وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور قدر مقادير الخلائق وآجالهم وكتب آثارهم وأعمالهم وقسم بينهم معاشهم وأمواتهم وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور القاهر القادر فكل عسير عليه يسير وهو المولى النصير فنعم المولى ونعم النصير يسبح له ما في السموات وما في الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير خلق السموات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له أنه جل عن الشبيه والنظير وتعالى عن الشريك والظهير وتقديس عن تعطيل الملحين كما تتره عن شبه المخلوقين فليس كمثلته شيء وهو السميع البصير وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من بريته وصفوته من خليقته وآمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده أعرف الخلق به وأقومهم بخشيته وأنصحهم لأمتهم وأصبرهم لحكمه وأشكرهم لنعمه وأقربهم إليه وسيلة وأعلاهم عند منزلة وأعظمهم عنده جاها وأوسعهم عنده شفاعه بعثه إلى الجنة داعيا وللإيمان مناديا وفي مرضاته ساعيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا فبلغ رسالات ربه وصدع بأمره وتحمل في مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه وقام لله بالصبر والشكر حتى القيام حتى بلغ رضاه فثبت في مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من

الصابرين وترقى في درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين فحمد الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العالمين فآدم تحت لوائه ومن دون الانبياء والمرسلين وجعل الحمد فاتحة كتابه الذى أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفي التوراة والانجيل وجعله آخر دعوى أهل ثوابه الذين دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه

(٢/١)

أمتة الحامدين قبل ان يخرجهم إلى الوجود لحمدهم له على السراء والضراء والشدة والرخاء وجعلهم أسقى الأمم إلى دار الثواب والجزاء فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمدا لله وذكرنا كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبرا وشكرا فصلى الله وملائكته وأنبيأوه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحد الله وعرف به ودعا اليه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فإن الله سبحانه جعل الصبر جوادا لا يكبو وصارما لا ينبو وجندا لا يهزم وحصنا حصينا لا يهدم ولا يثلم فهو والنصر أخوان شقيقان فالنصر مع الصبر والفرج مع الكرب والعسر مع اليسر وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ومحل من الظفر كمحل الرأس من الجسد ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيه أجراً بغير حساب وأخبره أنه معهم بمدايته ونصره العزيز وفتح المين فقال تعالى وأصبروا ان الله مع الصابرين فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة وفازوا بها بنعمة الباطنة والظاهرة وجعل سبحانه الامامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكدا باليمن فقال تعالى ولئن صبرتم لهو خير الصابرين وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى وأن تصبروا وتنفقوا لا يضركم كيدهم شيئا أن الله بما يعلمون محيط

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصلاه إلى محل العز والتمكين فقال أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فعقل ذلك عنه المؤمنون فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وأخبر عنه محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى والله يحب الصابرين ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى وبشر الصابرين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله

(٣/١)

إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون
وأوصى عبادة بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى واستعينوا بالصبر
والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين
وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به الا الصابرون فقال تعالى إني جزيتهم اليوم بما صبروا
أنهم هم الفائزون وأخبر أن الرغبة في ثوابه والاعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها الا أو لو الصبر
المؤمنون فقال تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا
الصابرون وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسىء كأنه ولي حميم فقال ولا تستوى
الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وأن هذه الخصلة لا
يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم
وأخبر سبحانه مؤكدا بالقسم ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر وقسم خلقه قسمين أصحاب يمينة وأصحاب مشامة وخص أهل الميمنة أهل التواصي
بالصبر والمرحمة وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييز لهم بهذا الحظ الوفور فقال في أربع
آيات من كتابه ان في ذلك لآيات لك صبار شكور وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر وذلك
على من يسره عليه يسير فقال ألا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير
وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور فقال ولم صبر وغفر ان ذلك لمن عزم
الامور وأمر رسوله بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره انما هو به وبذلك جميع المصائب تقوم فقال واصبروا
لحكم ربك فإنك بأعيننا وقال واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ان
الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون
والصبر أخيه المؤمن التي يجول ثم يرجع اليها وساق ايمانه الذي اعتمد له الا عليها فلا ايمان لمن لا صبر
له وان كان في ايمان قليل في غاية الضعف وصاحبه

(٤/١)

يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة
ولم يحظ منهما الا بالصفقة الخاسرة فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم وترفقوا إلى أعلى المازل بشكرهم
فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واله ذو الفضل
العظيم

فصل

ولما كان الايمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقا على من نصح نفسه وأحب نجاحها وآثر

سعادتهما أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليحمله الله يوم لقائه مع خير الفريقين

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة اليهما وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما فجاء كتابا جامعا حاويا نافعا فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يعرض عليه بالنواجد وتثنى عليه الخناصر ممتعا لقاريه صريحا للناظر فيه مسليا للحزين منهضا للمقصرين محرضا للمشمزين مشتملا على نكات حسان من تفسير القرآن وعلى أحاديث نبوية معزوة إلى مظانها وآثار سلفية منسوبة إلى قائلها ومسائل فقهية حسان مقرة بالدليل ودقائق سلوكية على سواء السبيل لا تخفى معرفة ذلك على من فكر وأحضر ذهنه فان فيه ذكر أقسام الصبر ووجوه الشكر وأنواعه وفصل النزاع في التفضيل بين الغنى الشاكر والفقر الصابر وذكر حقيقة الدنيا وما مثلها الله ورسوله والسلف الصالح به والكلام على سبب هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال وذكر ما يذم من الدنيا ويحمد وما يقرب منها إلى الله ويبعد وكيف يشقى بها من يشقى ويسعد بها من يسعد وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتابسواه وذلك محض منة من الله على عبده وعطية من بعض عطايه فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء والأغنياء والفقراء والصوفية والفقهاء ينهض بالقاعد إلى المسير ويؤنس السائر في الطريق وبنه السالك على المقصود ومع هذا فهو جهد المقل وقدرة المفلس حذر فيه من الداء وان كان من أهله ووصف فيه الداء وان لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله وهو يرجوا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه

(٥/١)

لعبادة المؤمنين فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده فهو الحمود والمستعان وما كان فيه من خطأ فم مصنفه ومن الشيطان والله برىء منه ورسوله وهذه بضاعه مؤلفة المرجاة تساق إليك وسلعته تعرض عليك فلقاريه غنمة وعلى مؤلفة غرمه وبنات أفكاره تزف إليك فإن وجدت حرا كريما كان بها أسعد والا فهي خود تزف إلى عنين مقعد وقد جعلته ستة وعشرين بابا وخاتمة

الباب الأول في معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

الباب الثاني في حقيقة الصبر وكلام الناس في

الباب الثالث في بيان أسماء الصبر بالاضافة إلى متعلقة

الباب الرابع في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الباب الخامس في أقسام الصبر باعتبار محله

الباب السادس في أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

الباب السابع في بيان أقسامه باعتبار متعلقه
الباب الثامن في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به
الباب التاسع في بيان تفاوت درجات الصبر
الباب العاشر في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم
الباب الحادى عشر في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام
الباب الثانى عشر في الأسباب التي تعين عل الصبر
الباب الثالث عشر
في بيان أن الانسان لا يستغنى عن الصبر في حال من الأحوال
الباب الرابع عشر
في بيان اشق الصبر على النفوس
الباب الخامس عشر
في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز
الباب السادس عشر
في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة
الباب السابع عشر
في ذكر الآثار الواردة عن الصحابة في فضيلة الصبر
الباب الثامن عشر
في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها
الباب التاسع عشر في الصبر نصف الايمان وأن الايمان نصفان صبر ونصف شكر
الباب العشرون
في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

(٦/١)

الباب الحادى والعشرون في الحكم بين الفريقين والفصل بي الطائفتين
الباب الثاني والعشرون في اختلاف الناس في الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل وما هو الصواب
في ذلك
الباب الثالث والعشرون في ذكر ما احتجت به الفقهاء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار
الباب الرابع والعشرون

في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

الباب الخامس والعشرون

في بيان الامور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

الباب السادس والعشرون في بيان دخول الصبر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور سميته عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين والله المسئول أن يجعله خالصا لوجهه مدنيا من رضاه وأن ينفع به مؤلفه وقاتبه وقارئه انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل

الباب الاول في معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها أصل

هذه الكلمة هو المنع والحبس فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عن لطم الحدود وشق الثياب ونحوهما ويقال صبر يصبر صبرا وصبر نفسه قال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وقال عنتره

فصبرت عارفة لذلك حرة ... ترسو اذا نفس الجبان تطلع

يقول حبست نفسا عارفة وهي نفس حر يأنف لا نفس عبد لا أنفه له وقوله ترسو أي تثبت وتسكن إذا خفت نفس الجبان واضطربت ويقال صبرت فلانا إذا حبسته وصبرته بالتشديد إذا حملته على الصبر وفي حديث الذي أمسك رجلا وقتله آخر يقتل القاتل ويصبر الصابر أي يحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت وصبرت الرجل اذا قتلتته صبرا أي أمسكته للقتل وصبرته أيضا وأصبرته إذا حبسه للحلف ومنه الحديث الصحيح من حلف على يمين صبر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عنه معرض ومنه الحديث الذي في القسامة ولا تصبر

(٧/١)

يمينه حيث تصبر الإيمان والمصبورة اليمين الخلوفا عليها وفي الحديث نهي عن المصبورة وهي الشاة

والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمي حيث تموت

وفعل هذا الباب صبرت أصبر بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل وأما صبرت أصبر بالضم في المستقبل فهو بمعنى الكفالة والصبر الكفيل كأنه حبس نفسه للغرم ومنه قولهم أصبرني أي جعلني كفيلا وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته قال الأصمعي إذا لقي الرجل الشدة بكماها قيل لقيها بأصبارها ومنه الصبر بضم الصاد للأرض ذات الحصب لشدةها وصلابتها ومنه سميت الحرة أم صبار ومنه قولهم وقع القوم في أمر صبور بتشديد الباء أي أمر شديد ومنه صبارة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده وقيل مأخوذ من الجمع والضم فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع ومنه صبرة الطعام وصبارة الحجارة

والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة المنع والشدة والضم ويقال صبر إذا أتى بالصبر وتصبر إذا تكلفه واستدعاه واصطبر إذا اكتسبه وتعمله وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصبر وصبر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر واسم الفاعل صابر وصبار وصبور ومصابر ومصطبر فمصابر من صابر ومصطبر من اصطبر وصابر من صبر وأما صبار وصبور فمن أوزان المبالغة من الثلاثي كضراب وضروب والله أعلم

الباب الثاني في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه قد تقدم بيان معناه

لغة وأما حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يتمتع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها وسئل عنه الجند بن محمد فقال تجرع الماراة من غير تعبس وقال ذو النون هو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصصى البلية وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة وقبل الصبر هو الوقوف مع البلاء

(٨/١)

بحسن الأدب وقيل هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى وقال أبو عثمان الصبار هو الذي عود نفسه المهجوم على المكاره وقيل الصبر المقام على البلاء بحسن الصحة كالمقام مع العافية ومعنى هذا أن الله على العبد عبودية في عافيته وفي بلائه فعليه أن يحسن صحة العافية بالشكر وصحة البلاء بالصبر وقال عمرو بن عثمان المكي الصبر هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء وبصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى وقال الخواص الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة وقال رويم الصبر ترك الشكوى فسرّه يلازمه وقال غيره الصبر هو الاستعانة بالله وقال أبو علي الصبر كإسمه وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الصبر مطية لا تكبو وقال أبو محمد الجريري الصبر أن لا يفرق بين النعمة والحنة مع سكون خاطر فيهما

قلت وهذا غير مقدور ولا مأمور به فقد ركب الله الطباع على التفريق بين الحالتين وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي في الدعاء المشهور أن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ولا يناقض هذا قوله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر وأما قبله فالعافية أوسع له وقال أبو علي الدقاق حد الصبر أن لا يعترض على التقدير فأما اظهار للبلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر قال الله تعالى في قصة أيوب انا وجدناه صابرا مع قوله مسنى الضر قلت فسر اللفظ بلازمها

وأما قوله على غير وجه الشكوى فالشكوى نوعان أحدهما الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثي وحزني إلى الله مع قوله فصبر

(٩/١)

جميل وقال أيوب مسنى الضر مع وصف الله له بالصبر وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه اللهم أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي الخ وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك والنوع الثاني شكوى المبتلى بلسان الحال والمقال فهذه لا تجامع الصبر بل تضاده وتبطله فالفرق بين شكواه والشكوى اليه وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر واقتراحهما ان شاء الله تعالى

وقيل الصبر شجاعة النفس ومن ها هنا أخذ القائل قوله الشجاعة صبر ساعة وقيل الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب والصبر والجزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر قال تعالى عن أهل النار سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص والجزع قرين العجز وشقيقه والصبر قرين الكيس ومادته فلو سئل الجزع من أبوك لقال العجز ولو سئل الكيس من أبوك لقال الصبر والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار والصبر لها بمزلة الخطام والزمام للمطيه فإن لم يكن للمطيه خطام ولا زمام شردت في كل مذهب

وحفظ من خطب الحجاج اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء فرحم الله امرءا جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه

قلت والنفس فيها قوتان قوة الإقدام وقوة الاحجام فحقيقة الصبر ان يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه وقوة الاحجام امساكا عما يضره ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه اقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات اقوى من صبره على مشقة الطاعات ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك وأفضل الناس أصبرهم على النوعين فكثير

(١٠/١)

من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلى مشقة الصيام ولا يصبر عن نظرة محرمة وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين وأقلهم أصبرهم في الموضعين وقيل الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يجب وباعث العقل والدين يمنع منه والحرب قائمة بينهما وهو سجال ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات

الباب الثالث في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه لما كان الصبر

الخمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماءه بحسب متعلقه فإنه ان كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة وضدها الفجور والزنا والعهر وان كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول مالا يجمل منه سمي شرف نفس وشيع نفس وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس وان كان عن اظهار ما لا يحسن اظهاره من الكلام سمي كتمان سر وضده اذاعة وافشاء أو قهمة أو فحشاء أو سبا أو كذبا أو قذفا وان كان عن فضول العيش سمي زهدا وضده حرصا وان كان على قدر يكفي من الدنيا سمي قناعة وضدها الحرص أيضا وان كان عن اجابة داعي الغضب سمي حلما وضده تسرعا وان كان عن اجابة داعي العجلة سمي وقارا وثباتا وضده طيشا وخفة وان كان عن اجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة وضده جبنا وخورا وان كان عن اجابة داعي الانتقام سمي عفوا وصفحا وضده انتقاما وعقوبة وان كان عن اجابة داعي الامساك والبخل سمي جودا وضده بخلا وان كان عن اجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمي صوما وان كان عن اجابة داعي العجز والكسل سمي كيسا وان كان عن اجابة داعي القاء الكيل على الناس وعدم حمل كلهم

(١١/١)

سمى مروءة فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه والاسم الجامع لذلك كله الصبر وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها وهكذا يسمى عدلا اذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم ويسمى سماحة اذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار وعلى هذا جميع منازل الدين

الباب الرابع في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره فإن حبس نفسه ومنعها عن اجابة داعي ما لا يحسن ان كان خلقا له وملكه سمي صبرا وان كان بتكلف وقمرن وتجرع لمرارته سمي تصبرا كما يدل عليه هذا البناء لغة فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها واذا

تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النبي أنه قال ومن يتصبر يصبره الله وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية كذلك سائر الأخلاق وهي مسألة تختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها أو التخلق لا يصير خلقا أبدا كما قال الشاعر
يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل وقال آخر
يا أيها المتحلى غير شيمته ... ان التخلق يأتي دونه الخلق وقال آخر
فقبح التطبع شيمة المطبوع ...

قالوا وقد فرغ الله سبحانه من الخلق والخلق والرزق والأجل وقالت طائفة أخرى بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك قالوا والمزاوالت تعطى الملكات ومعنى هذا أن من زاول شيئا واعتاده وتمرن عليه صار ملكه له وسجية وطبيعته قالوا والعوائد تنقل الطباع فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية كما أنه لا يزال

(١٢/١)

يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى يصير له أخلاقا بمنزلة الطباع قالوا وقد جعل الله سبحانه في الانسان قوة القبول والتعلم فنقل الطباع عن مقتضياتها غير مستحيل غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفا فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث وقد يكون قويا ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاصطبار كما أن التكسب مقدمة الاكتساب فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر فإنها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاة والمضاربة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه والمراقبة وهي الثبات والزموم والاقامة على الصبر والمصابرة فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يربط وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال واتقوا الله لعلكم تفلحون فالمراقبة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته

الباب الخامس في انقسامه باعتبار محله الصبر ضربان ضرب بدني وضرب

نفساني وكل منهما نوعان اختياري واضطرابي فهذه أربعة أقسام الأول البدني الاختياري كنعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارا واردة

(١٣/١)

الثاني البدني الاضطرابي كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك
الثالث النفساني الاختياري كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعا ولا عقلا الرابع النفساني
الاضطرابي كصبر النفس عن محبوبها قهرا اذا حيل بينها وبينه
فإذا عرفت هذه الاقسام فهي مختصة بنوع الانسان دون البهائم ومشاركة للبهائم في نوعين منها وهما
صبر البدن والنفس الاضطرابيين وقد يكون بعضها أقوى صبرا من الانسان وانما يتميز الانسان عنها
بالنوعين الاختياريين وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم لا في النوع
الذي يخص الانسان فيعد صابرا وليس من الصابرين
فإن قيل هل يشارك الجن والانس في هذا الصبر قيل نعم هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الامر والنهي
والجن مكلفون بالصبر على الاوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك فإن قيل فهل هم مكلفون
على الوجه الذي كلفنا نحن به أم على وجه آخر قيل ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والايمان
والتصديق والموالاتة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه وما كان من لوازم الابدان كغسل الجنابة وغسل
الاعضاء في الوضوء والاستنجاء والحتان وغسل الخيض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا في تكلفه وان
تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم
فإن قيل فهل تشاركنا الملائكة في شئ من أقسام الصبر قيل الملائكة لم يتلوا بهوى يحارب عقولهم
ومعارفهم بل العباد والطاعة لهم كالنفس لنا فلا يتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث
الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى وان كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم واقامتهم على ما
خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع
فالانسان منا اذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة وان غلب باعث الهوى والشهوة
صبره التحق بالشياطين وان غلب باعث طبعه

(١٤/١)

من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم قال قتادة خلق الله سبحانه الملائكة عقولا بلا
شهوات وخلق البهائم شهوات بلا عقول وخلق الانسان وجعل له عقلا وشهوة فمن غلب عقله شهوته

فهو مع الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم ولما خلق الانسان في ابتداء أمره ناقصا لم يخلق فيه الا شهوة الغداء الذى هو محتاج اليه فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم وليس له قبل تمييزه قوة صبر الاختيار فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختيارى على ضعفها فيه فإذا تعلق به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر واذا تحرك سلطان العقل وقوى استعان بجيش الصبر ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن اشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما فتلمح العواقب وليس لأمة الحرب وأخذ أنواع الأسلحة ووقع في حومة الحرب بين داعى الطبع والهوى وداعى العقل والهدى والمنصور من نصره الله والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى يتزل في احدى المتزلتين ويصير إلى ما خلق له من الدارين

الباب السادس بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى

وعجزه عنه

وباعث الدين بالاضافه إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال أحدهما أن يكون القهر والغلبة لداعى الدين فيرد جيش الهوى مغلولاً وهذا انما يصل اليه بدوام الصبر والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم

(١٥/١)

في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصهم بمدايته دون من عداهم الحالة الثانية ان تكون القوة والغلبة لداعى الهوى فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان احدهما ان يكون من جندهم وأتباعهم وهذه حال العاجز الضعيف الثانية ان يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل

وكنتم امرءاً من جند ابليس فارتقى ... بى الحال حتى صار ابليس من جندي

فيصير ابليس وجنده من أعوانه وأتباعه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وانما صاروا إلى هذه الحال لما افلسوا من الصبر وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء وجند اصحابها المكر والخداع والأمانى الباطلة والغرور والتسويق بالعمل

وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل وهي التي قال في صاحبها النبي العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان واصحاب هذه الحال انواع شتى فمنهم المحارب لله ورسوله الساعي في ابطال ما جاء به الرسول يصد عن سبيل الله ويبيغها جهده عوجا وتحريفا ليصد الناس عنها ومنهم المعرض عما جاء به الرسول المقبل على دنياه وشهواتها فقط ومنهم المنافق ذو الوجهين الذي يأكل بالكفر والاسلام ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالنجون واللهو واللعب ومنهم من اذا وعظ قال واشواقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلا مطمع لى فيها ومنهم من يقول ليس الله محتاجا إلى صلاحي وصيامي وانا لا أنجو بعملتي والله غفور رحيم ومنهم من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته فكثير ما استطعت من الخطايا ... اذا كان القدوم على كريم ومنهم من يقول ماذا تقع طاعتي في جنب ما عملت وما قد ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق ومنهم من يقول سوف أتوب واذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم

(١٦/١)

في ايدي شهواتهم فلا يستعمل أحدهم عقله الا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب وهو يقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمزلة رجل قهر مسلما وباعه للكفار وسلمه اليهم وجعله اسيرا عندهم فصل وهاهنا نكتة بديعة يجب النفطن لها وينبغي اخلاء القلب لتأملها وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذى أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه اليه وجعله أسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه ويسخر منه جنده وحزبه فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذى أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره فصار بمزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له قال الله تعالى فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون

فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقررًا له وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما

كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك
قيل السلطان الذى اثبت له عليهم غير الذى نفاه من وجهين أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان
التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه اياهم كيف أراد بتمكينهم اياه من ذلك بطاعته وموالاته والسلطان
الذى نفاه سلطان الحجة فلم يكن لا بليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة
ولا برهان الثانى أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة ولكن هم سلطوه على انفسهم

(١٧/١)

بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف وانما تسلطن عليهم
يارادتهم واختيارهم والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته
وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه فصل الحالة الثالثة أن يكون الحرب
سجالا ودولا بين الجندين فتارة له وتارة عليه وتكثر نوبات الانتصار وتقل وهذه حال أكثر المؤمنين
الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء فمن الناس من يدخل الجنة ولا
يدخل النار ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة وهذه الأحوال
الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان
للقوة ومنهم من يقهر دأؤه قوته ويكون السلطان للداء ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوبا فهو متردد
بين الصحة والمرض فصل ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس
ومثال الاول كرجل صارع رجلا شديدا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة والثانى كمن صارع رجلا ضعيفا
فإنه يصصره بغير مشقة فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان ومن صرع جند
الشيطان صرع الشيطان

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقي رجلا من الانس رجلا من الجن فصارعه فصصره الانسى فقال
مالى أراك ضيلا فقال انى من بينهم لضليع فقالوا أهو عمر بن الخطاب فقال من ترويه غير عمر
وقال بعض الصحابة ان المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في السفر وذكر ابن أبي الدنيا عن
بعض السلف أن شيطانا لقي شيطانا فقال ما لى أراك شخيبا فقال انى مع رجل ان أكل ذكر اسم الله فلا
أكل معه وان شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه وان دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار فقال
الآخر لكنى مع رجل أن أكل لم يسم الله فأكل أنا وهو جميعا وان شرب لم يسم

(١٨/١)

الله فأشرب معه وان دخل داره لم يسم الله فأدخل معه وان جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه

الباب السابع في ذكر أقسامه باعتبار متعلقه الصبر باعتبار متعلقه

ثلاثة أقسام صبر على الاوامر والطاعات حتى يؤديها وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها وصبر على الاقدار والاقضية حتى لا يتسخطها وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب لا بد للعبد من أمر يفعله ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه وهذا الكلام بطرفين طرف من جهة الرب تعالى وطرف من جهة العبد فأما الذي من جهة الرب فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان حكم شرعي ديني وحكم كوني قدرى فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه وهو سبحانه له الخلق والأمر وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب فإن المطلوب ان كان محبوبا له فالمطلوب فعله اما واجبا واما مستحبا ولا يتم ذلك الا بالصبر وان كان مبغوضا له فالمطلوب تركه اما تحريما واما كراهة وذلك ايضا موقوف على الصبر فهذا حكمه الديني الشرعي واما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ففرضه الصبر عليها وفي وجوب الرضا بما قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد أحدهما أنه مستحب فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفا ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف فقيام عبودية الامر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوى الا عليه كما لا تستوى السنبلة الا على ساقها فالصبر متعلق بالمأمور والمحذور والمقدور بالخلق والامر والشيخ دائما يحوم ص

(١٩/١)

حول هذه الاصول الثلاثة كقوله يا بني افعلم المأمور واجتنب المحذور واصبر على المقدور وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله يا بني أقم الصلاة وءامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به وكذلك نهيه عن المنكر أما من حيث اطلاق اللفظ فتدخل نفسه فيه وغيره وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله انما يتذكر أولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدروا أن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف فوصفهم بالوفاء بعهد الله الذي عاهدهم عليه

وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهده اليهم بينهم وبينه وبين خلقه ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة اليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد وقد أمر الله بهذه الاسباب التى بينه وبين عبده أن توصل وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شىء والرضا لحكمه والتسليم له وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليه فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة فإنه أمر بيد الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسى ولا نكلفهم فوق طاقتهم وأن نصل ما بيننا

(٢٠/١)

من ذلك الوسخ والخبث وأما باب المأمورات فلا يطله إلا الشريك
الثالث عشر أن جزاء المأمورات الثواب وهو من باب الاحسان والفضل والرحمة وجزاء المنهيات
العقوبة وهى من باب الغضب والعدل ورحمته سبحانه تغلب غضبه فما تعلق بالرحمة والفضل أحب اليه
مما تعلق بالغضب والعدل وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره اليه من فعل ما تعلق بالغضب
الرابع عشر ان باب المنهيات تسقط الآلاف المؤلفة منه الواحدة من المأمورات وباب المأمورات لا يسقط
الواحدة منه الآلاف المؤلفة من المنهيات

الخامس عشر ان متعلق المأمورات الفعل وهو صفة كمال بل كمال المخلوق من فعاله فإنه فعل فكمال
ومتعلق النهى الترك والترك عدم ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالا فإن العدم الخفض ليس بكمال
وانما يكون كمالا لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودى الذى هو سبب الكمال وأما أن يكون
مجرد الترك الذى هو عدم محض كمالا أو سببا للكمال فلا مثال ذلك لو ترك السجود للضم لم يكن
كمالاً في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله والا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالا
وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمناً ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب
وموالاته وطاعته فعلم أن الكمال كله في المأمور وان المنهى ما لم يتصل به فعل المأمور لم يفد شيئاً ولم
يكن كمالاً فإن الرجل لو قال للرسول لا أكذبك ولا أصدقك ولا أواليك ولا أعاديك ولا أحاربك
ولا أحارب من يحاربك لكان كافراً ولم يكن مؤمناً بترك معاداته وتكذيبه ومحاربتة ما لم يأت بالفعل

الوجودى الذى أمر به

السادس عشر ان العبد اذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهى عنه ولا بد فالمقصود انما هو فعل المأمور ومع فعله على وجهه يتعذر فعل المنهى فالمنهى عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة فإن العبد اذا فعل ما أمر به من العدل والعفة وامتنع من صدور الظلم والفواحش منه فنفس العدل يتضمن ترك الظلم ونفس العفة تتضمن ترك الفواحش فدخل ترك المنهى عنه في المأمور به ضمنا وتبعاً وليس كذلك في عكسه فان ترك المحذور لا يتضمن فعل المأمور فإنه قد يتركهما معا

(٢١/١)

الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحذور

الباب الثامن في انقسامه باعتبار تعلق الاحكام الخمسة به وهو

ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجب ومندوب ومحذور ومكروه ومباح فالصبر الواجب ثلاثة أنواع أحدها الصبر عن المحرمات والثاني الصبر على أداء الواجبات والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله

وأما المحذور فأنواع أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت قال طاوس وبعده الامام أحمد من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار

فإن قيل فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال

قيل اختلف في حكمه هل هو حرام أو مباح على قولين هما لأصحاب أحمد وظاهر نصه ان الصبر عن المسألة جائز فإنه قيل له إذا خاف أن لم يسأل أن يموت فقال لا يموت يأتيه الله برزقه أو كما قال فأحمد منع وقوع المسألة ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيض الله له رزقا

وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي يجب عليه المسألة وان لم يسأل كان عاصيا لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف فصل ومن الصبر المحذور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبيع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة

(٢٢/١)

وقتل المسلمين فإنه مباح له بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة وقد سئل النبي عن هذه المسألة بعينها فقال كن خيرا ابني آدم وفي لفظ كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل وفي لفظ دعه يبوء بإثمه وإثمك وفي لفظ آخر فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك وقد حكى الله استسلام خير ابني آدم وأثنى عليه بذلك وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام فإن كان عن معصوم غيره وجب وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع وأوجه بعضهم ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرّمته بالفاحشة فصل وأما الصبر المكروه فله امثلة أحدها أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه الثاني صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت الى ذلك ولم يتضرر به الثالث صبره على المكروه الرابع صبره عن فعل المستحب وأما الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين خير بين فعله وتركه والصبر عليه وبالجملة فالصبر على الواجب واجب وعن الواجب حرام والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه والصبر عن المباح مباح والله أعلم

الباب التاسع في بيان تفاوت درجات الصبر كما تقدم نوعان اختياري

واضطراري والاختياري أكمل من الاضطراري فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من اخوته لما ألقوه في الحب وفرقوا بينه وبين أبيه

(٢٣/١)

وباعوه بيع العبد ومن الصبر الثاني انشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض وكذلك صبر الخليل عليه السلام والكليم وصبر نوح وصبر المسيح وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى وفي قوله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الخوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الخوت إذ نادى وهو مكظوم

وها هنا سؤال نافع وهو أن يقال ما العامل في الظرف وهو قوله اذ نادى ولا يمكن أن يكون الفعل المنهى عنه اذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجينا من الغم وكذلك نجى المؤمنين وفي الترمذى وغيره عن النبي أنه قال دعوة أخى ذى النون اذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب الا فرج الله عنه لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه وانما فهمى عن التشبه به في هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه وانما ينهى عن التشبه به في السبب الذى أفضى به إلى هذه المنادة وهى مغاضبته التى أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم والكظيم والكاظم الذى قد امتلأ غيظا وغضبا وهما وحرنا وكظم عليه فلم يخرج

فإن قيل وعلى ذلك فما العامل في الظرف قيل ما في صاحب الحوت من معنى الفعل

(٢٤/١)

فإن قيل فالسؤال بعد قائم فإنه إذا قيد المنهى بقيد أو زمن كان داخلا في حيز النهى فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان فهما عن تلك الحالة قيل لما كان نداؤه مسببا عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يشبه به في الحال التى أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبا فالتقمة الحوت فنادى بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر واكتفي بغايتها وما انتهت اليه

فإن قيل فما منعك بتعريض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه أى لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلى غيظا وهما وغما بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم قيل هذا المعنى وإن كان صحيحا الا أن النهى لم يقع عن التشبه به في مجرده وانما فهمى عن التشبه به في الحال التى حملته على ذهابه مغاضبا حتى سجن في بطن الحوت ويدل عليه قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ثم قال ولا تكن كصاحب الحوت أى في ضعف صبره لحكم ربه فإن الحالة التى فهمى عنها هى ضد الحالة التى أمر بها

فإن قيل فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكونى القدرى الذى يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته قيل منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم اياه كشف ما بهم من الضر

وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له فنجينااه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به وكذلك أثنى على أيوب بقوله مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين وعلى يعقوب بقوله انما أشكو بثى وحزنى إلى الله

(٢٥/١)

وعلى موسى بقوله رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير وقد شكوا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله اللهم أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى الحديث فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل بل اعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعائه وقد ذم سبحانه من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع اليه وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويجب من يشكو ما به اليه وقيل لبعضهم كيف تشكى اليه ما ليس يخفي عليه فقال ربي يرضى ذل العبد اليه

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختيارا وهذا أكمل الصبر ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

فإن قيل أى انواع الصبر الثلاثة أكمل الصبر على المأمور أم الصبر عن المخطور أم الصبر على المقدور قيل الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهى أفضل من الصبر على مجرد القدر فان هذا الصبر يأتى به البر الفاجر والمؤمن والكافر فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارا أو اضطرارا

وأما الصبر على الاوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل وأعظمهم اتباعا أصبرهم في ذلك وكل صبر في محله وموضعه أفضل فالصبر عن الحرام في محله أفضل وعلى الطاعة في محلها أفضل

فإن قيل أى الصبرين أحب إلى الله صبر من يصبر على أوامره أم صبر من يصبر عن محارمه قيل هذا موضع تنازع فيه الناس فقالت طائفة الصبر عن المخالفات أفضل

(٢٦/١)

لأنه أشق وأصعب فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون قالوا ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله قالوا ولأن ترك الحبوب الذى تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب إليه من نفسه وهواه بخلاف فعل ما يحبه الحبوب فإنه لا يستلزم ذلك قالوا وأيضا فالمروءة والفتوة كلها في هذا الصبر

قال الإمام أحمد الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر قالوا وليس العجب من يصبر على الأوامر فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك الحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى والنفس موكلة بحب العاجل فصرها عنه مخالف لطبعها

قالوا ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو إليها نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة وذلك أشق شيء على النفوس وأمره قالوا فالمناهى من باب حمية النفوس عن مشتبهاتها ولذا تم والحمية مع قيام داعى التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه قالوا لذلك كان باب قربان النهى مسدودا كله وباب الأمر انما يفعل منه المستطاع كما قال النبي اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه فدل على ان باب المنهيات أضيق من باب المأمورات وانه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر قالوا ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حدا معيناً فأعظم المأمورات الصلاة وقد اختلف العلماء هل على تاركها حد أم لا فصل فهذا بعض ما احتجت به الطائفة وقالت طائفة أخرى بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك الخطور لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحذور والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى وبيان ذلك من وجوه

(٢٧/١)

أحدهما أن فعل المأمور مقصود لذاته فهو مشروع شرع المقاصد فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبة والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق وثبت بها الأمر وذلك أمر مقصود لنفسه والمنهيات انما نهى عنها لأنها صادرة عن ذلك أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله ولذلك كانت درجاتها في النهى بحسب صدها عن المأمور وتعويقها عنه وتفويتها لكماله فهي مقصودة لغيرها والمأمور مقصود لنفسه فلو لم يصد الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التواد والتحاب الذى وضعه الله بين عباده لما حرمه وكذلك لو لم يحل بين العبد وبين عقله الذى به

يعرف الله ويعبده ويمجده ويصلي له ويسجد لما حرمه وكذلك سائر ما حرمه انما حرمه لأنه
يصد عما يحبه ويرضاه ويحول بين العبد وبين إكماله
الثاني ان المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عليه والإنابة اليه
فمتعلقها ذات الرب تعالى وأسماءه وصفاته ومتعلق المنهيات ذوات الاشياء المنهى عنها والفرق من اعظم
ما يكون
الثالث ان ضرورة العبد وحاجته إلى فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك الخطور فإنه ليس إلى شيء
أحوج واشد فاقة منه إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة
وضرورته إلى ذلك أعظم من ضرورته إلى نفسه ونفسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذي به
قوام بدنه بل هذا لقلبه وروحه كالحياه والغذاء لبدنه وهو انما هو انسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقلبه
كما قيل
يا خادماً الجسم كم تشقى بخدمته ... فأنت بالقلب لا بالجسم انسان
وترك المنهى انما شرع له تحصيلاً لهذا الأمر الذي هو ضرورى له وما أحوج به وافقره اليه
الرابع ان ترك المنهى من باب الحمية وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذى لا تقوم البنية بدونه
ولا تحصل الحياة الابدية فقد يعيش الإنسان مع تركه الحميه وان كان بدنه عليلاً أشد ما يكون علة ولا
يعيش بدون القوة والغذاء الذى

(٢٨/١)

يحفظها فهذا مثل المأمورات والمنهيات
الخامس ان الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين ترك المأمور وفعل الخطور ولو فعل العبد الخطور كله
من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الايمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار ولو
ترك كل محذور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلداً في السعير فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار
إلى شيء وزن الجبال منه أضعافاً مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء
منه
السادس ان جميع الخطورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة ولا تسقط المأمورات كلها معصية
المخالفة الا بالشرك أو الوفاة عليه ولا خلاف بين الأمة ان كل محذور يسقط بالتوبة منه واختلفوا هل
تسقط الطاعة بالمعصية وفي المسألة نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه
السابع ان ذنب الاب كان يفعل الخطور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وذنب ابليس
كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة الثامن ان

المأمور محبوب إلى الرب والمنهى مكروه له وهو سبحانه انما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه والصفح والحلم والتجاوز عن حقه وغير ذلك مما هو أحب إليه تعالى من فواته بعدم تقدير ما يكرهه واذا كان انما قدر ما يكرهه لأنه يكون وسيلة إلى ما يحبه علم أن محبوبه هو الغاية ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه بل اذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر كان المبغوض مراداً له ارادة الوسائل كما كان النهى عنه وكرهته لذلك وأما الخيوب فمراده ارادة المقاصد كما تقدم فهو سبحانه انما خلق الخلق لاجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقدر مكروهه ومبغوضه تكميلاً لهذه الغاية التي خلق خلقه لأجلها فانه ترتب عليه من المأمورات ما لم يكن يحصل بدون تقديره كالجهاد الذي هو أحب

(٢٩/١)

العمل اليه والموالاته فيه والمعاداة فيه ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما ما يكون سبباً لحصولها

التاسع ان ترك المحذور لا يكون قرينة ما لم يقارنه فعل المأمور فلو ترك العبد كل محذور لم يشبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الايمان وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحذور قرينة حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون تركه لله فافتقر ترك المنهيات بكونه قرينة يثاب عليها إلى فعل المأمور ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قرينة وطاعة إلى ترك المحذور ولو افتقر اليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبداً وهذا من أبطل الباطل العاشر ان المنهى عنه مطلوب اعدامه والمأمور مطلوب ايجاده والمراد ايجاد هذا واعدام ذاك فإذا قدر عدم الأمرين أو وجودهما كان وجودهما خيراً من عدمهما فإنه اذا عدم المأمور لم ينفع عدم المحذور واذا وجد المأمور فقد يستعان به على دفع المحذور أو دفع أثره فوجود القوة والمرض خير من عدم الحياة والمرض

الحادى عشر ان باب المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة وباب المحذور السيئة فيه بمثلها وهى بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار والحسنة الماحية والمصيبة المكفرة واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم المنهى الثانى عشر ان باب المنهيات يحوّه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره فإنه يبطله بالتوبة النصوح والاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين فهذه ستة في حال حياته وبتشديد الموت وكرهه وسياقه عليه فهذا عند مفارقتة الدنيا وبهول المطلع

وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له وشدة الموقف وعناؤه وصعوبته وبشفاعة الشافعين فيه وبرحمة أرحم الراحمين له فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بد له من دخول النار ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه فإن الله حرم الجنة الا على كل طيب فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو في كبر التطهير حتى يتصفى

(٣٠/١)

وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتى اليهم بما نحب أن يأتوه إلينا وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جلسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله الا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه وهو الصبر فقال والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم فلم يكثف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهى الصلاة فقال وأقاموا الصلاة وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وهما لكبيرة الا على الخاشعين وقال يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين ثم ذكر سبحانه احسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم ثم ذكر حالهم اذا جهل عليهم وأوذوا انهم لا يقابلون ذلك بمثل بل يدرأون بالحسنة السيئة فيحسنون إلى من يسيء اليهم فقال ويدرأون بالحسنة السيئة وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقال النبي اتبع السيئة الحسنة تمحها والتحقيق أن الآية تعم النوعين والمقصود أن هذه الايات تناولت مقامات الاسلام والايمان كلها اشتملت على فعل المأمور وترك المأثور والصبر على المقدور وقد ذكر تعالى هذه الاصول الثلاثة في قوله بلى ان تصبروا وتتقوا وقوله انه من يتق ويصبر وقوله يا أيها

(٣١/١)

كما تقدم فعلم أن المقصود هو إقامة الأمر على وجهه ومع ذلك لا يمكن ارتكاب النهي البتة وأما ترك النهي عنه فإنه يستلزم إقامة الأمر

السابع عشر أن الرب تعالى إذا أمر عبده بأمر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعا كان قد حصل محبوب الرب وبغيضه فقد تقدم له من محبوه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته ولا سيما إذا كان فعل ذلك الخبوع أحب إليه من ترك ذلك البغيض فيهب له من جنائته ما فعل من هذا بطاعته ويتجاوز له عما فعل من الآخر

ونظير هذا في الشاهد أن يقتل الرجل عدوا للملك هو حريص على قتله وشرب مسكرا نهاه عن شربه فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها في جنب ما أتى به من محبوه وأما إذا ترك محبوه وبغيضه فإنه لا يقوم ترك بغيضه بمصلحة فعل محبوه أبدا كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب مسكر فعصاه في قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر فإن الملك لا يهب له جرمه بترك أمره في جنب ترك ما نهاه عنه وقد فطر الله عباده على هذا فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهن ليس التارك منهم محبوب الامر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمره ومكروهه

يوضحه الوجه الثامن عشر أن فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع مكروهه بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوه فيستحيل الاتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبه وأبغضه فغايتته أنه اجتمع الأمران فيحبه الرب تعالى من وجه ويبغضه من وجه أما إذا ترك المأمور به جملة فإنه لم يقم به ما يحبه الرب عليه فإن مجرد ترك النهي لا يكون طاعة الا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر فصار مبعوضا للرب تعالى من كل وجه إذ ليس فيه ما يحبه الرب عليه فتأمله

يوضحه الوجه التاسع عشر وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمر وجودى أمر به إيجابا أو استحبابا ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا في موضع واحد فإنه يحب التوابين ويحب المحسنين ويجب الشاكرين ويحب الصابرين ويحب المتطهرين ويجب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ويجب

(٣٢/١)

المتقين ويجب الذاكرين ويجب المتصدقين فهو سبحانه انما علق محبته بأوامره اذ هي المقصود من الخلق والأمر كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون فما خلق الخلق الا لقيام أوامره وما نهاهم الا عما يصددهم عن قيام أوامره ويعرفهم عنها

يوضحه الوجه العشرون أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذي أمر الله بها لم يكن للنهي عنها معنى وإنما فهمي عنها لمضادتها لأمره وتعويقها لها وصددها عنها فالنهي عنها من باب التكميل والتممة للمأمور فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجري في مجاريه غير معوق فالأمر بمنزلة الماء الذي أرسل في نهر حياة البلاد والعباد والنهي بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء والأمر بمنزلة القوة والحياة والنهي بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والداء والخادم لها قالوا وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر وبه يسهل عليه الصبر عن المخطور والصبر على المقدور فإن الصبر إلا على يتضمن الصبر الأدنى دون العكس وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة ومنهم من هو بالعكس من ذلك ومنهم من قوة صبره في جانب الأمر أقوى ومنهم من هو بالعكس والله أعلم

الباب العاشر في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم الصبر ينقسم إلى

قسمين قسم مذموم وقسم محمود

فالمذموم الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له

(٣٣/١)

بدونه البتة كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأولياته من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده ما رأيته أزهد منك فقال أنت أزهد مني أنا زهدت في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة فمن أزهد منا قال يحيى بن معاذ الرازي صبر الخبير أعجب من صبر الزاهدين وأعجبا كيف يصبرون وفي هذا قيل

الصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

ووقف رجل على الشبلى فقال أى صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله قال لا فقال الصبر لله فقال لا قال فالصبر مع الله قال لا قال فأيش هو قال الصبر عن الله فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق

وقيل الصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد أجمع الناس على أن الصبر عن الخبواب غير محمود فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته ولم تزل الأحباب تعيب الخبير بالصبر عنهم كما قيل

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود وقال آخر في الصبر عن محبوه
إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل منى ... بمثالة اليمين مع الشمال
وشكا آخر إلى محبوه ما يقاسي من حبه فقال لو كنت صادقا لما صبرت عنى
ولما شكوت الحب قالت كذبتنى ... ترى الصب عن محبوه كيف يصبر فصل وأما الصبر الحمد فروعان
صبر لله وصبر بالله قال الله تعالى واصبر وما صبرك إلا بالله وقال واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا
وقد تنازع الناس أى الصبرين أكمل فقالت طائفة الصبر له أكمل فإن ما كان الله أكمل مما كان الله فإن
ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة والغايات أشرف من الوسائل ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا
كان تبرر أو تقربا إلى

(٣٤/١)

الله لأنه نذر له ولم يجب الوفاء به اذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به فما كان له سبحانه فهو متعلق
بالوحيته وما كان به فهو متعلق بربوبيته وما تعلق بالوحيته أشرف مما تعلق بربوبيته ولذلك كان توحيد
الألوهية هو المنجى من الشرك دون توحيد الربوبية بمجردة فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده
خالق كل شيء وربهم ومليكه ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم
توحيد ربوبيته

وقالت طائفة الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى واصبر فأمره بالصبر
والمأمور به هو الذى يفعل لأجله ثم قال وما صبرك إلا بالله فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى
تقدمتها أخبر فيها انه لا يمكنه الصبر الا به وذلك يتضمن أمرين الاستعانة به والمعية الخاصة التى تدل
عليها باء المصاحبة كقوله في يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى وليس المراد بهذه الباء الاستعانة
فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصى فإن مالا يكون بالله لا يكون بل هى باء المصاحبة والمعية التى
صرح بمضمونها في قوله ان الله مع الصابرين وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب اليه بالنوافل حتى
صار محبوبا له فيه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه ومن
كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله كما في الأثر الإلهى يعنى وما يتحمل المتحملون من
أجلى فدل قوله وما صبرك الا بالله على انه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر وكيف يصبر على الحكم
الأمرى امتثالا وتنفيذا وتبليغا وعلى الحكم القدرى احتمالا له واضطلاعا به من لم يكن الله معه فلا
يطمع في درجة الصبر الحمد عواقبه من لم يكن صبره بالله كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم
يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله

وهذا هو المراد من قوله كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ليس المراد انى كنت نفس هذه الاعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة وان ذات العبد هي ذات الرب تعالى الله عن قول اخوان النصارى علوا كبيرا ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين

(٣٥/١)

هذا العبد وغيره ولا بين حالتي تقربه إلى ربه بالنوافل وتمقته اليه بالمعاصى بل لم يكن هناك متقرب ومتقرب اليه ولا عبد ولا معبود ولا محب ولا محبوب فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجها تعرف بالتأمل الظاهر وقد فسر المراد من قوله كنت سمعه وبصره ويده ورجله بقوله في يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى فعبر عن هذه المصاحبة التى حصلت بالتقرب اليه بمحابه بالطف عبارة وأحسنها تدل على تأكيد المصاحبة ولزومها حتى صار له بمثلة سمعه وبصره ويده ورجله ونظير هذا قوله الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه ومثل هذا سائغ في الاستعمال أن يتزل إلى مثلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبيب أنت روحى وسمعى وبصرى وفي ذلك معنيان أحدهما أنه صار منه بمثلة روحه وقلبه وسمعه وبصره والثاني أن محبته وذكره لما استولي على قلبه وروحه صار معه وجليسه كما في الحديث يقول الله تعالى أنا جليس من ذكرنى وفي الحديث الآخر أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه وفي الحديث فإذا أحببت عبدى كنت له سمعا وبصرا ويذا ومؤيدا ولا يعبر عن هذا المعنى بأتى من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها وإيضاح هذه العبارة مما يزيد بها جفاء وخفاء والمقصود انما هو ذكر الصبر بالله وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره واذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره قال أبو على فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته قال تعالى ان الله مع الصابرين وها هنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته اليه والرب تعالى هو الصبور بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه وقد قيل ان الله سبحانه أوحى إلى داود تخلق بأخلاق فإن من أخلاقى انى أنا الصبور والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويجب مقتضى صفاته وظهور

(٣٦/١)

آثارها في العبد فإنه جميل يحب الجمال عفو يحب أهل العفو كريم يحب أهل الكرم عليم يحب أهل العلم وترى أحب أهل الوتر قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف صبور يحب الصابرين شكور يحب الشاكرين وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا فصل وزاد بعضهم قسما ثالثا من أقسام الصبر وهو الصبر مع الله وجعلوه أعلى أنواع الصبر وقالوا هو الوفاء ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت وهي الصبر على أقضيته والصبر على أوامره والصبر عن نواهيه فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائما مع الله لا مع نفسه فهو مع الله بالحبّة والموافقة فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر فهذا حق ولكن جعله قسما رابعا من أقسام الصبر غير مستقيم

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب ها هنا وها هنا حقيقة هذا هو الاستقامة اليه وعكوف القلب عليه وزاد بعضهم قسما آخر من أقسامه وسماه الصبر فيه وهذا أيضا غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له وهذا كما يقال فعلت هذا في الله وله كما قال خبيب

وذلك في ذات الاله وان يشأ ... يبارك على أوصال شلو مزرع وقد قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال وجاهدوا في الله وفي حديث جابر ان الله تعالى لما أحيا أباه وقال له تمن قال يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أقتل فيك مرة ثانية وقال ولقد أوديت في الله وما يؤذى

(٣٧/١)

أحد وهذا يفهم منه معنيان أحدهما أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره كما في الحديث تعلمت فيك العلم والثاني انه بسببه وبجهته حصل ذلك وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم ذلك في الله في هذا المعنى فتأمل قوله ولقد أوديت في الله وقول خبيب وذلك في ذات الاله وقول عبد الله بن حزام حتى أقتل فيك وكذلك قوله والذين جاهدوا فينا فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه

وليست في ها هنا للطرفية ولا لجرد السببية وان كانت السببية هي أصلها فانظر إلى قوله في نفس المؤمن مائة من الابل وقوله دخلت امرأة النار في هرة كيف تجد فيه معنى زائدا على السببية وليست في اللوعاء في جميع معانيها فقولك فعلت هذا في مرضاتك فيه معنى زيد على قولك فعلته لمرضاتك وأنت اذا قلت أوديت في الله لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك أوديت لله ولا بسبب الله وإذا فهم المعنى طوى حكم

العبارة والمقصود ان الصبر في الله ان أريد به هذا المعنى فهو حق وان أريد به معنى خارج عن الصبر على أفضيته وعلى أوامره وعن نواهيته وله وبه لم يحصل فالصابر في الله كالمجاهد في الله والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله والله الموفق

وأما قول بعضهم الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنع له وتصوره وانما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم ونحن نشرح هذه الكلمات

أما قوله الصبر لله غناء فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه فإن قطع المفاضة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جدا على النفس بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد السير من الدنيا إلى الآخرة سهل يعنى على المؤمن وهجران الخلق في جنب الحق شديد والسير من النفس إلى الله صعب شديد والصبر مع الله أشد وأما قوله والصبر بالله بقاء فلأن العبد اذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل

(٣٨/١)

الانتقال ولم يجد لها ثقلا فإنه اذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر غير شأنه اذا كان بنفسه وبالخلق وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته وتنقلب مشاق التكليف له نعيما وقرة عين كما قال بعض الزهاد عاجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة

وأما قوله والصبر في الله بلاء فالبلاء فوق العناء والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم فإن الصبر فيه بمزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له فكل مجاهد في الله وصابر في الله مجاهد له وصابر له من غير عكس فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله وانما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة

وأما قوله والصبر مع الله وفاء فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة فتعطى المعية حقها من التوفية كما قال تعالى وإبراهيم الذى وفى وفى ما أمر به بصبره مع الله على أوامره

وأما قوله والصبر عن الله جفاء فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذى لا مولى له سواه ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم الا بمحبته والقرب منه وإيثار مرضاته على كل شيء فأى جفاء أعظم من الصبر عنه وهذا معنى قول من قال الصبر على ضد بين صبر العابدين وصبر الخبيثين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظا وصبر الخبيثين أحسنه أن يكون مرفوضا كما قيل

يبين يوم البين ان اعتزامه ... على الصبر من احدى الظنون الكواذب وقال الآخر
ولما دعوت الصبر بعدك والبكا ... أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر قالوا ويدل عليه أن يعقوب
صلوات الله وسلامه عليه قال فصبر جميل ورسول الله اذا وعد وفى ثم حمله الوجد على يوسف والشوق
اليه أن قال يا أسفا على يوسف فلم يكن عدم صبره عنه منافيا لقوله فصبر جميل فإن

(٣٩/١)

الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال إنما أشكو
بشي وحزني إلى الله والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال اللهم اليك أشكو
ضعف قوتي وقلة حيلتي الحديث وأما قول بعضهم إن الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة في القوم
لا يدري من هو فهذا من الصبر الجميل لأن من فقداه فقد الصبر الجميل فإن ظهور اثر المصيبة على العبد
مما لا يمكن دفعه البتة وبالله التوفيق

وزاد بعضهم في الصبر قسما آخر وسماه الصبر على الصبر وقال هو ان يستغرق في الصبر حتى
يعجز الصبر عن الصبر كما قيل

صابر الصبر فا ستغاث به الصبر ... فصاح المحب بالصبر صبرا
وليس هذا خارجا عن أقسام الصبر وإنما هو المراقبة على الصبر والثبات عليه والله أعلم

الباب الحادى عشر في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام كل أحد

لا بد أن يصبر على بعض ما يكره إما اختيارا واما اضطرارا فالكريم يصبر اختيارا لعلمه بحسن عاقبة
الصبر وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع وأنه ان لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتا ولم ينتزع عنه مكروها
وان المقدور لاحيلة في دفعه وما لم يقدر لاحيلة في تحصيله فالجزع ضره أقرب من نفعه قال بعض العقلاء
العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر كما قيل
وأن الأمر يفضى إلى آخر ... فيصير آخره أولا

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الاحق
في آخره وقال بعض العقلاء من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم فالكريم ينظر إلى المصيبة فإن رأى
الجزع يردّها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع وان كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين

(٤٠/١)

فصل وأما اللئيم فإنه يصبر اضطراراً فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدى عليه شيئاً فيصبر صبر الموثق للضرب وأيضا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن واللئيم يصبر في طاعة الشيطان فاللئيم أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبرا في طاعة ربهم فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء ويصبر في تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أودى في الله بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يتكلم في عرضه في ذات الله ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته صابرا على ما يقال فيه وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته فهو أصبر شيء على التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله وهذا أعظم اللؤم ولا يكون صاحبه كريما عند الله ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودى بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم أين المتقون

الباب الثاني عشر في الأسباب التي تعين على الصبر لما كان الصبر

مأمور به جعل الله سبحانه له أسبابا تعين عليه وتوصل اليه وكذلك مأمور الله سبحانه بالأمر بالأعان عليه ونصب له أسبابا تمده وتعين عليه كما أنه ما قدر داءا الا وقدر له دواء او ضمن الشفاء باستعماله فالصبر وان كان شاقا كريها على النفوس فتحصيله ممكن وهو يتركب من مفردين العلم والعمل فمنهما تركب جميع الادوية التي تداوى بها القلوب والأبدان فلا بد من جزء علمي وجزء عملي فمنها يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الادوية فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال وإدراك ما في الخطر من الشر والضرر

(٤١/١)

والنقص فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء فمضى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس وكل متضارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر كالحال مع القوة والمرض سواء فإذا قوى باعث شهوة الوقاع الحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه أو يملكه ولكن لا يملك طرفه أو يملكه ولكن لا يملك قلبه بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكير فيما ينفعه في دنياه وآخريته فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولا بأمور أحدهما أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيحدها من الاغذية المحركة

للشهوة إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجارى الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً
الثاني أن يجتذب محرك الطلب وهو النظر فليقتصر لجام طرفه ما أمكنه فإن داعى الإرادة والشهوة انما يهيج بالنظر والنظر يحرك القلب بالشهوة وفي المسند عنه النظر سهم مسموم من سهام إبليس وهذا السهم يشرده إبليس نحو القلب ولا يصادف جنة دونه وليست الجنة الا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي فإنه انما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم وان نصبت قلبك غرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة
الثالث تسليية النفس بالمباح المعوض عن الحرام فإن كل ما يشتهي الطبع ففيهما أباحه الله سبحانه غنية عنه وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس كما أرشد اليه النبي فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح وعن الكلب الضارى لإضعاف قوتها والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير

(٤٢/١)

عن البهيمة لئلا تتحرك قوتها له عند المشاهدة والدواء الثالث يشبه إعطائهما من الغذاء ما يميل اليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبهما ولا تغلب باعطائها الزيادة على ذلك
الرابع التفكير في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر فانه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعى ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر ولكن عين الهوى عمياء
الخامس الفكرة في مقابح الصورة التى تدعوه نفسه اليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب كما قيل
سأترك وصلكم شرفاً وعزاً ... لخسة سائر الشركاء فيه وقال آخر
إذ كثر الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه
وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوى فان ريق الفاسق داء كما قيل
تسل يا قلب عن سمح بمهجته ... مبذل كل من يلقيه يقرفه
كالماء أى صيد يأتيه ينهله ... والغصن أى نسيم من يعطفه
وان حلاً ريق فاذكر مرارته ... في فم أبخر يحفيه ويرشفه
ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضى بالمشاركة فليتنظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبايح الباطنة فإن من مكن نفسه من فعل

القبايح فنفسه أقبح من نفوس البهائم فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلا إلا ما يحكى عن الخنزير وأنه ليس في البهائم لوطى سواه فقد رضى هذا الممكن من نفسه انه يكون بمثالة الخنزير وهذا القبح يغطى كل جمال وملاحة في الوجه والبدن غير أن حبك الشئ يعمى ويصم وان كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلمها

(٤٣/١)

ونفسها وأورث ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذى يعلو وجه أحدهما في كبره وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه كما قيل شعرا
لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذى يسببه لم يسبه وتفصيل هذه الوجوه يطول جدا فيكفي ذكر أصولها فصل وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور
أحدهما إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة

الثاني مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له فإن الحب لمن يحب مطيع وأفضل الترك ترك المحبين كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين فبين ترك الحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد
الثالث مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالاساءة من أحسن اليه وانما يفعل هذا لئام الناس فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلا اليه ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه فملك يتزل بهذا وملك يعرج بذاك فأقبح بها من مقابلة
الرابع مشهد الغضب والانتقام فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء فضلا عن هذا العبد الضعيف

الخامس مشهد القوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعا وعقلا وعرفا ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذى أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافا مضاعفة فكيف أن يبيعه

(٤٤/١)

بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعثها تذهب الشهوة وتبقى الشقوة وقد صح عن النبي أنه قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن قال بعض الصحابة يترع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة فإن تاب رجع

اليه وقال بعض التابعين يترع عنه الإيمان كما يترع القميص فإن تاب لبسه ولهذا روى عن النبي في الحديث الذى رواه البخارى الزناة في التنور عراة لأنهم تعروا من لباس الإيمان وعاد تنور الشهوة الذى كان في قلوبهم تنورا ظاهرا يحمى عليه في النار

السادس مشهد القهر والظفر فان قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعا وأتم فرحة وأما عاقبته فأحمد عاقبة وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذى أزال داء الجسد وأعادته إلى صحته واعتداله

السابع مشهد العوض وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها وليوازنه بين العوض المعوض فأيهما كان أولى بالإيتار اختاره وارتضاه لنفسه

الثامن مشهد المعية وهو نوعان معية عامة ومعية خاصة فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله وقد تقدم هذا والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله ان الله مع الصابرين وقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقوله وان الله مع المحسنين فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن فضى وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر انما هي كأحلام نائم أو كظل زائل

التاسع مشهد المغافصة والمعالجة وهو أن يخاف أن يغافسه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهى من لذات الآخرة فيا لها من حسرة ما أمرها وما أصعبها لكن ما يعرفها الا من جربها وفي بعض الكتب القديمة يامن لا يامن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم الحذر الحذر

العاشر مشهد البلاء والعافية فان البلاء في الحقيقة ليس الا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها فأهل البلاء هم أهل المعصية وان عوفيت

(٤٥/١)

أبدانهم وأهل العافية هم أهل الطاعة وان مرضت أبدانهم وقال بعض أهل العلم في الأثر المروى إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والأعراض والغفلة عنه وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول انواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم والله أعلم

الحادى عشر أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعى الهوى ومقاومته على التدريب قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر فتقوى حينئذ همته فإن من ذاق لذة شئ قويته همته في تحصيله والاعتناء للممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التى تصدر عنها تلك الأعمال ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البراز والحياط ونحوهما ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد

الثاني عشر كف الباطل عن حديث النفس وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير أمانى وهى رءوس أموال المفاليس ومتى ساكن الخواطر صارت أمانى ثم تقوى فتصير هموما ثم تقوى فتصير ارادات ثم تقوى فتصير عزما يقترن به المراد فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته

الثالث عشر قطع العلائق والأسباب التى تدعوه إلى موافقة الهوى وليس المراد أن لا يكون له هوى بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه فإن كل شيء من الانسان يستعمله الله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان وما لا يستعمله الله استعماله لنفسه وهواه ولا بد فالعلم ان لم يكن لله كان للنفس والهوى والعمل ان لم يكن لله كان للرياء والنفاق والمال ان لم ينفق في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى والجاه ان لم يستعمله الله استعماله صاحبه في هواه وحظوظه والقوة ان لم يستعملها في أمر الله استعمالته في معصيته فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الاخلاص والعمل لله وهذا في جميع أبواب الأعمال فليس شيء أشق

(٤٦/١)

على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس
الرابع عشر صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التى ندب عباده إلى التفكير فيها وهى آياته المتلوة وآياته الجلوة فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاضرا للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة فرغب عن ذلك إلى محاضرة الشيطان من الانس والجن فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان

الخامس عشر التفكير في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها فلا يرضى لنفسه ان يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أحسن ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دينى المروءة ميت القلب فإن حسرتة تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له فكيف اذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم بل اذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنا

السادس عشر تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء اليه على الدوام فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف ان لله في أيام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التى لا يسأل الله فيها شيئا الا أعطاه فمن أعطى منشور الدعاء أعطى الاجابة فإنه لو لم يرد اجابته لما ألهمه الدعاء كما قيل

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه ... من جود كفك ما عودتني الطلب
ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما
ليس كمثله شيء في صفاته فإنه ما حرمه الا ليعطيه ولا أمرضه الا ليشفيه ولا أفقره الا ليغنيه ولا أماته
الا ليحييه وما أخرج أبويه من الجنة الا ليعيدهما اليها على أكمل حال كما قيل يا آدم لا تجزع من قولي
لك واخرج منها فلك خلقتها وسأعيدك اليها
فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحبه بسقمه فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه
أصلا الا اذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه
السابع عشر أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحتة بين الجاذبين

(٤٧/١)

جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين فكلما انقاد مع الجاذب
الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل
درجة حتى ينتهي إلى موضعه من سجين ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل فلينظر
أين روحه في هذا العالم فإنها اذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه اليه في الدنيا
فهو أولى بما فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزءاً وكل مهتم بشئ فهو منجذب اليه وإلى أهله بالطبع
وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى قل كل يعمل على شاكلته فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها
وهيها وأعمالها إلى أعلى والنفوس السافلة إلى أسفل

الثامن عشر أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة وتنقيته من الدغل شرط لكمال
الزرع فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلاً قابلاً يتزل فيه وان فرغه حتى أصابه غيث الرحمة
ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له وهذا
كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث فإذا طهر العبد قلبه
وفرغه من ارادة السوء وخواطره وبذر فيه بذر الذكر والفكر والحبّة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح
الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديراً بحصول المغل وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في
وقته كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة ولا
سيما اذا اجتمعت المهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل
الجمعة فإن اجتماع المهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة كما
نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية
في حصول مسبباتها ولكن العبد بجعله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن وبظلمه يؤثر ما يحكم به

هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه ولو فرغ العبد الخل وهياه وأصلحه لرأى العجائب فإن فضل الله لا يرده الا المانع الذى فى العبد فلو زال ذلك المانع

(٤٨/١)

لسارع اليه الفضل من كل صوب فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض العطشة الجدية سكر وسد كثيف فصاحبها يشكو الجذب والنهر إلى جانب أرضه التاسع عشر أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لافناء له ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه وغناء لا فقر معه ولذة لا ألم معها وكمال لا نقص فيه وأمتحنه فى هذه الدار بالبقاء الذى يسرع اليه الفناء والعز الذى يقارنه الذل ويعقبه الذل والأمن الذى معه الخوف وبعده الخوف وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذى هنا مشوب بضده لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال فغلط أكثر الخلق فى هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه فى غير محله ففاقم فى محله وأكثرهم لم يظفر بماطليه ! من ذلك والذى ظفر به انما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه والرسول صلوات الله وسلامه عليهم انما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير فمن أجابهم حصل له ألد ما فى الدنيا وأطيبه فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم فإن الزهد فى الدنيا ملك حاضر والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد فيحرص كل الحرص على أن لا يصل اليه فإن العبد اذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعى الدين فهو الملك حقا لأن صاحب هذا الملك حر والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه فهو مسخر مملوك فى زى مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذى صورته ملك وباطنه رق وعلى الشهوة التى أولها لذة وآخرها حسرة والبصير الموفق يعبر نظره من الاوائل إلى الأواخر ومن المبادئ إلى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

العشرون أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف فى حصول المقصود بل لا بد أن يضيف اليه بذل الجهد فى استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح فلا أفلاح من استمر مع عوائده أبدا ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة

(٤٩/١)

والبعد عنها ما أمكنه وقد قال النبي من سمع بالدجال فلينا عنه فما استعين على التخلص من الشر بمثل
البعد عن أسبابه ومظانه

وههنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها الا حاذق وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير
ويدعوه إلى تحصيله فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة والله اعلم

الباب الثالث عشر في بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبر في حال من

الأحوال

فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه وقدر يجري عليه اتفاقا ونعمة يجب
عليه شكر المنعم عليها واذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات وكل ما يلقي العبد
في هذه الدار لا يخلو من نوعين أحدهما يوافق هواه ومراده والآخر يخالفه وهو محتاج إلى الصبر في كل
منهما أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شئ
إلى الصبر فيها من وجوه

أحدها أن لا يركن اليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله
الثاني أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فانما تنقلب إلى اضدادها فمن بالغ في الأكل والشرب
والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع

الثالث أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها

الرابع أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنما توقعه في الحرام فإن
احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه ولا يصبر على السراء الا الصديقون

قال بعض السلف البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية إلا الصديقون وقال عبد
الرحمن بن عوف رضى الله عنه ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده
من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر

(٥٠/١)

الله وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وليس المراد من
هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحاداة بل إنما هي عداوة الحبة الصادة للآباء
عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذى
من حديث اسراييل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا
ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن
يأتوا النبي فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد

فقهوا في الدين هموا أن يعاقبهم فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم الآية قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفي الحديث الولد مبخله مجبنة وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني زيد بن واقد قال حدثني عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي يقول كان رسول الله يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فترل رسول الله عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما وهذا من كمال رحمته ولطفه بالصغار وشفقته عليهم وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار فصل وانما كان الصبر على السراء شديدا لأنه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها فصل وأما النوع الثانى المخالف للهوى فلا يخلو اما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا ترتبط أوله باختياره كالمصائب أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في ازالته بعد الدخول فيه فهاهنا ثلاثة أقسام أحدها ما يرتبط باختياره وهو جميع أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من

(٥١/١)

العبودية أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وايتار الراحة ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها وان فعلها مع ذلك كان متكلفا غائب القلب ذاهلا عنها طالبا لفراقها كالجالس إلى الجيفة وأما الزكاة فلما في طبعها اى النفس من الشح والبخل وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعا ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال أحدها قبل الشروع فيها بتصحيح النية والاخلاص وتجنب دواعى الرياء والسمعة وعقد العزم على توفية المأمورية حقها الحالة الثانية الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعى التقصير فيه والتفريط ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود وأن لا ينساه في أمره فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الا مراحل الإتيان بأمره بل يكون مستصحباً لذكره في أمره فهذه عبادة العبيد المخلصين لله فهو يحتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه

الحالة الثالثة الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه
أحدها أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن
والأذى فليس الشأن الإتيان بالطاعة انما الشأن في حفظها مما يبطلها
الثاني أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي
الظاهرة
الثالث أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية فإن العبد يعمل العمل سرا بينه وبين الله
سبحانه فيكتب في ديوان السر فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية فلا يظن أن بساط الصبر انطوى
بالفراغ من العمل

(٥٢/١)

فصل وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في
الجلاسة والمحادثة وقطع العوائد فإن العادة طبيعة خاصة فاذا انصافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من
جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما فصل القسم الثاني ما لا يدخل تحت الاختيار وليس
للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو
ذلك وهذا نوعان أحدهما ما لا صنع للعبد الآدمي فيه والثاني ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسب
والضرب وغيرهما فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات أحدها مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى
والسخط وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلا ودينا ومروءة وهو أعظم المصيبتين
المقام الثاني مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية
المقام الثالث مقام الرضا وهو أعلى من مقام الصبر وفي وجوبه نزاع والسير متفق على وجوبه
المقام الرابع مقام الشكر وهو أعلى من مقام الرضا فإنه يشهد بالبلىة نعمة فيشكر المبتلى عليها
وأما النوع الثاني وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات ويضاف إليها أربعة آخر أحدها مقام
العفو والصفح والثاني مقام سلامة القلب من ارادة التشفي والانتقام وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل
وقت وضيقه بها الثالث مقام شهود القدر وانه وان كان ظالما بإيصال هذا الأذى إليك فالذى قدره
عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه فالمنسخط من
أذى الحر والبرد غير حازم والكل جار بالقدر وان اختلفت طرقه وأسبابه
المقام الرابع مقام الإسحاح إلى المسيء ومقابلة اساءته بإحسانك وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا
يعلمه الا الله فإن فات العبد هذا المقام العالى فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها

(٥٣/١)

فصل القسم الثالث ما يكون وروده باختياره فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطراب وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها كما لا حيلة في دفع السكر بعد تناول المسكر فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة وهى أن يخيل إليه أن ينل بعض ما منع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة وقد أجازته كثير من الفقهاء وهذا من أعظم الجهل فإن هذا التداوى لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى كما قال تعالى وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور وقال إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه

فإن قيل فهل يثاب على الصبر في هذا القسم اذا كان عاصيا مفرطاً يتعاطى أسبابه وهل يكون معاقبا على ما تولد منه وهو غير اختياري له قيل نعم اذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب الخطور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره فإذا كان السبب محظورا لم يكن السكران معذورا فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه لأن اتباعهم له تولد عن فعله ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة وقد قال تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم وقال تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فإن قيل فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله والإنسان انما يتوب

(٥٤/١)

عما يتعلق باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه وعدم اجابة دواعيه وموجباته وحس النفس عن ذلك فإن كان المتولد متعلقا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة ان يبين أن ما كان يدعو اليه بدعة وضلالة وان الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل

في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه فقال ان الذين يكتُمون ما انزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم افساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشرّكين أعداء الرسول وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا بدل افسادهم وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشرّكين وأن يخلصوا دينهم لله بدل إضهارهم رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان

الباب الرابع عشر في بيان أشق الصبر على النفوس مشقة الصبر بحسب قوة

الداعى إلى الفعل وسهولته على العبد فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر وان فقدنا مع سهل الصبر عنه وان وجد احدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه صعب من وجه فمن لاداعى له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء عليه وأسهله ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشباب عن الفاحشة وحبد الغنى عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان

(٥٥/١)

وفي المسند وغيره عن النبي عجب ربك من شاب ليست له صبوة ولذلك استحق السبعة المذكورين في الحديث الذين يظلمهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه وصبر الرجل على ملازمة المسجد وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعى ومنصبه وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم اظهاره للناس من أشق الصبر ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والمملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلا على تمردهم على الله وعتوهم عليه ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من اصعب أنواع الصبر لشدة الداعى اليهما وسهولتهما فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك فتنفق قوة الداعى وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا قال لمعاذ امسك عليك لسانك فقال وانا لمؤاخذون بما نتكلم

به فقال وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ولا سيما اذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة تحرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والمفكه ! في أعراض الخلق وربما رخص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر ومثل رأس الإبرة من النجاسة ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام كما يحكى أن رجلا خلا بامرأة أجنبية فلما اراد موافقتها قال يا هذه غطي وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام وقد سأل رجل عبد الله بن عمر عن دم البعوض فقال انظروا إلى هؤلاء يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله

(٥٦/١)

واتفق لى قريب من هذه الحكاية كنت في حال الإحرام فأثنى قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل الحرم القمل فقلت يا عجباً لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلها ويسألون عن قتل القملة في الاحرام والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحاديها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها ويذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال الصبر ثلاثة فصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة

وقال ميمون بن مهران الصبر صبران فالصبر على المصيبة حسن وأفضل منه الصبر عن المعصية وقال الفضيل في قوله تعالى سلام عليكم بما صبرتم ثم قال صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به والله أعلم

الباب الخامس عشر في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه الله ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً ونحن نذكر الأنواع التي سيق فيها الصبر وهي عدة أنواع

أحدها الأمر به كقوله واصبر وما صبرك الا بالله واصبر لحكم ربك الثاني النهي عما يضاده كقوله ولا تستعجل لهم وقوله ولا تقنوا ولا تحزنوا وقوله ولا تكن كصاحب الحوت وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به الثالث تعليق الفلاح به كقوله يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور

الرابع الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وقوله
 انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قال سليمان بن القاسم كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر قال الله
 تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قال كالماء المنهمر
 الخامس تعليق الإمامة في الدين به وباليقين قال الله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا
 بآياتنا يوقنون فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين
 السادس ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم قال تعالى إن الله مع الصابرين قال أبو على الدقاق فاز الصابرون
 بغز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته
 السابع انه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهى الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم
 قال تعالى وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات
 من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وقال بعض السلف وقد عزى على مصيبة نالته فقال مالى لا أصبر
 وقد وعدنى الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها
 الثامن أنه سبحانه جعل الصبر عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به فقال واستعينوا بالصبر والصلاة فمن لا
 صبر له لا عون له
 التاسع أنه سبحانه علق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم
 هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ولهذا قال النبي واعلم أن النصر مع الصبر
 العاشر أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فمن استجن العبد من ذلك
 جنة أعظم منهما قال تعالى وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً
 الحادي عشر انه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما قال والملائكة يدخلون
 عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار
 الثانى عشر انه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبتم به ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أن
 صبرهم خير لهم فقال وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به

ولئن صبرتم هو خير للصابرين فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التى
 فى الجواب
 الثالث عشر انه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال الا الذين صبروا

وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير وهؤلاء ثنية الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف
باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر عند النعمة ولا خلاص من هذا الذم الا بالصبر والعمل
الصالح كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير الا بهما

الرابع عشر انه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور أى مما يعزم من الأمور التى انما يعزم
على أجلها وأشرفها فقال ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور وقال لقمان لابنه واءمر بالمعروف
وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور

الخامس عشر انه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر وهى كلمته التى سبقت لهم وهى الكلمة الحسنى
وأخبر أنه انما انالهم ذلك بالصبر فقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا
السادس عشر أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما
وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين

السابع عشر انه سبحانه أخبر عن خصال الخير انه لا يلقاها الا الصابرون في موضعين من كتابه في
سورة القصص في قصة قارون وان الذين أوتوا العلم قالو للذين تمنوا مثل ما أوتى ويلكم ثواب الله خير
لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وفي سورة حميم السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتي
هى أحسن فإذا فعل ذلك صار الذى بينه وبينه عداوة كأنه حبیب قريب ثم قال وما يلقاها الا الذين
صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم

(٥٩/١)

الثامن عشر أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور فقال تعالى ولقد ارسلنا
موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار
شكور وقال تعالى في لقمان ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان في ذلك لآيات
لكل صبار شكور وقال في قصة سبأ وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل
صبار شكور وقال تعالى ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على
ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب انما
ينتفع بها أهل الصبر والشكر

التاسع عشر أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال أنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه
أواب فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا وهذا يدل على أن من لم يصبر اذا ابتلى فإنه بئس العبد
العشرون انه سبحانه حكم بالخير ان حكما عاما على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر
وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى والعصر ان الإنسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ولهذا قال الشافعي لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم وذلك أن العبد كماله في تكميل قوته قوة العلم وقوة العمل وهما الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر وأخية ذلك وقاعدته وساقفه الذي يقوم عليه انما هو الصبر

الحادى والعشرون أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة اليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الاقسام وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه ويليه من له صبر ولا رحمة عنده ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له الثاني والعشرون أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها

(٦٠/١)

فقرنه بالصلاة كقوله واستعينوا بالصبر والصلاة وقرنه بالأعمال الصالحة عموما كقوله الا الذين صبروا وعملوا الصالحات وجعله قرين التقوى كقوله إنه من يتق ويصبر وجعله قرين الشكر كقوله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور وجعله قرين الحق كقوله وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وجعله قرين الرحمة كقوله وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة وجعله قرين اليقين كقوله لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وجعله قرين الصدق كقوله والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن جزائه ويكفي بعض ذلك شرفا وفضلا والله أعلم

الباب السادس عشر في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة في الصحيحين

من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله أتى على امرأة تبكى على صبي لها فقال لها اتقى الله واصبرى فقالت وما تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها انه رسول الله فأخذها مثل الموت فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت يا رسول لم أعرفك فقال انما الصبر عند أول صدمة وفي لفظ عند الصدمة الأولى وقوله الصبر عند الصدمة الأولى مثل قوله ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه وقت الغضب فإن مفاجئات المصيبة بغتة لها روعة تززع القلب وتزعجه بصدمة فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر وأيضا فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهى الصدمة الأولى وأما اذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم انه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطراب وهذه المرأة لما علمت ان جزعها لا يجدى عليها شيئا جاءت تعتذر إلى

النبي كأنها تقول له قد صبرت فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى
ويدل على هذا المعنى ما رواه سعيد بن زريق عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة

(٦١/١)

رضي الله عنه قال مر النبي على امرأة جاثمة على قبر تبكي فقال لها يا أمة الله اتق الله واصبري قالت يا عبد الله ثكلى قال يا أمة الله اتق الله واصبري قالت يا عبد الله لو كنت مصابا عذرتني قال يا أمة الله اتق الله واصبري قالت يا عبد الله قد أسمعت فانصرف عني فمضى رسول الله واتبعه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها ما قال لك الرجل الذاهب قالت قال لي كذا وكذا وأجبت به بكذا وكذا قال هل تعرفينه قالت لا قال ذلك رسول الله قال فوثبت سرعة نحوه حتى انتهت إليه وهي تقول أنا أصبر أنا أصبر يا رسول الله فقال الصبر عند الصدمة الأولى الصبر عند الصدمة الأولى
قال ابن أبي الدنيا حدثنا بشر بن الوليد وصالح الكندي بن مالك قالوا حدثنا سعيد بن زريق فذكره فهذا السياق يبين معنى الحديث قال أبو عبيد معناه ان كل ذي رزبة فإن قصاره الصبر ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها

قلت وفي الحديث أنواع من العلم أحدها وجوب الصبر على المصائب وأنه من التقوى التي أمر العبد بها الثاني الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان سكر المصيبة وشدها لا يسقطه عن الأمر الناهي الثالث تكرار الامر والنهي مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه الرابع احتج به على جواز زيارة النساء للقبور فانه لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ولو كانت الزيارة حراما لبين لها حكمها وهذا كان في آخر الامر فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة وأجيب عن هذا بأنه قد أمرها بتقوى الله والصبر وهذا انكار منه لحالها من الزيارة والبكاء ويدل عليه أنها لما علمت أن الأمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة وأيضا فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد السلامه ولو شهدها فلعلته لزائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا في مرض موته وفي عدم تعريفه لها بنفسه في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها اذا عرفها بنفسه في تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك وكان معصيتها له وهي لا تعلم أنه رسول الله أخف

(٦٢/١)

من معصيتها له لو علمت فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه
وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله يقول ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره

الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم اجرني في مصيبي واخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها قالت فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله فأرسل إلى رسول الله حاطب بن أبي بلتعة يخاطبني له فقلت ان لي بنتا وأنا غيور فقال أما بنتها فادعو الله أن يغنيها عنها وادعو الله أن يذهب بالغيرة فتزوجت رسول الله وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت قال رسول الله إذا أصابت أحدكم مصيبة قليقل إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم عندك أحسب مصيبي فاءجرني فيها وابدلني خيرا منها فلما احتضر أبو سلمة قال اللهم اخلفني في أهلي خير مني فلما قبض قالت أم سلمة إنا لله وإنا إليه راجعون عند الله أحسب مصيبي فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله

وفي جامع الترمذي ومسنند الامام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجعك فيقول ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد وفي صحيح البخاري من حديث أنس أن رسول الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينييه وعند الترمذي في الحديث إذا أخذت كريمي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة وفي الترمذي أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله يقول الله عز و جل من أذهبت حبيتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمر قال قال رسول الله لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفية من أهل الارض واحتسبه بثواب دون

(٦٣/١)

الجنة وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله يقول الله عز و جل ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة وفي صحيحه أيضا عن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة قلت بلى قال هذه المرأة السوداء أتت النبي فقالت يا رسول الله اني أصرع واني أتكشف فادع الله لي قال ان شئت صبرت ولك الجنة وان شئت دعوت الله تعالى ان يعافيك فقالت أصبر فقالت أي أتكشف فادع الله ان لا أتكشف فدعا لها وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله قال إذا مرض العبد بعث إليه ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعوده فإن هو اذ جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول ان لعبدي علي ان توفيته ان أدخله الجنة وان أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وأن أكفر عنه

سيئاته وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر فيقوم ناس وهم قليلون فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون انا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسيء إلينا غفرنا وإذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين وفي الصحيحين أن رسول الله قسم مالا فقال بعض الناس هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك رسول الله فقال رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر وفي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ما من مصيبة تصيب المسلم الا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي قال ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي أنه قال لا يصيب المؤمن

(٦٤/١)

من شوكة فما فوقها الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي قال لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقي الله وما عليه خطيئة وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلاة زيد في بلائه وان كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال دخلت على النبي وهو يوعك وعكا شديدا قال فقلت يا رسول الله انك لتوعك وعكا شديدا قال أجل اني لأوعك كما يوعك رجلان منكم قلت ان لك لأجرين قال نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه الا حط الله عنه به خطاياها كما تحط الشجرة ورقها وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت الوجع اشد منه على رسول الله

وفي بعض المسانيد مرفوعاً ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسسه فيبلغها بذلك ويروى عن عائشة رضي الله عنها انه اذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكبر الخبث من الحديد وفي صحيح البخاري من حديث خباب بن الارت قال شكونا إلى رسول الله وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل

نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون وفي لفظ للبخاري أتيت رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلنا ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه

(٦٥/١)

وقد حمل أهل العلم قول خباب شكونا إلى رسول الله حر الرمضاء فلم يشكنا على هذا الحمل وقال شكوا إليه حر الرمضاء الذي كان يصيب جباههم وأكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم وإنما دهم على الصبر وهذا الوجه أنسب من تفسير من فسر ذلك بالسجود على الرمضاء واحتج به على وجوب مباشرة المصلي بالجبهة لثلاثة أوجه أحدها انه لا دليل في اللفظ على ذلك الثاني انهم قد أخبروا أنهم كانوا مع النبي فكان أحدهم اذا لم يستطع أن يسجد على الأرض ييسط ثوبه فسجد عليه والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به وقد أقرهم عليه الثالث ان شدة الحر في الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض بل يكاد يشوى الوجه والكف فلا يتمكن من الطمأنينة في السجود ويذهب خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض والشرعية لا تأتي بهذا فتأمل رواية خباب لهذا والذي قبله واجمع بين اللفظين والمعنيين والله أعلم ولا تستوحش من قوله فلم يشكنا فانه هو معنى إعراضه عن شكائهم وإخباره لهم بصبر من قبلهم والله أعلم وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال أرسلت ابنة النبي إليه ان ابنا لي احتضر فاءتنا فأرسل يقرئها السلام ويقول ان الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع الصبي إلى رسول الله فأقعده في حجره ونفسه تقعقع كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا قال هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وفي سنن النسائي عن ابن عباس قال احتضرت ابنة لرسول الله صغيرة فأخذها رسول الله وضمها إلى صدره ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله فبكت أم أيمن فقلت لها أتبكين ورسول الله عندك فقالت

(٦٦/١)

مالى لا أبكى ورسول الله يبكى فقال رسول الله انى لست أبكى ولكنها رحمة ثم قال رسول الله المؤمن بخير على كل حال تترع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل

وفي صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته انه قد مات هيأت شيئا وسجته في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح فظن أبو طلحة انها صادقة قال فبات معها فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته انه قد مات فصلى مع رسول الله ثم أخبره بما كان منهما فقال رسول الله لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما قال ابن عيينة فقال رجل من الانصار فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال هلكت امرأة لى فأتانى محمد بن كعب القرظى يعزىنى فيها فقال انه قد كان في بنى اسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد وكانت له امرأة وكان بها معجبا فماتت فوجد عليها وجدا شديدا حتى خلى في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس فلم يكن يدخل عليه أحد ثم ان امرأة من بنى اسرائيل سمعت به فجاءته فقالت ان لى اليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزىنى إلا أن أشفاه بها فذهب الناس ولزمت الباب فأخبر فأذن لها فقالت أستفتيك في أمر قال وما هو قالت انى استعرت من جارة حليا فكنت ألبسه وأعيره زمانا ثم انما أرسلت إلى فيه أفأرده اليها قال نعم قالت والله انه مكث عندي زمانا فقال ذلك أحق لردك إياه فقالت له يرحمك الله أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها

وفي جامع الترمذى عن شيخ من بنى مرة قال قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال ابن أبى بردة فقلت ان فيه لمعتبرا فأتيته وهو محبوس في داره التى كان بنى واذا كل شئ منه قد تغير من العذاب والضرب واذا هو في قشاش فقلت له الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار وأنت في حالتك هذه فكيف صبرك اليوم فقال ممن أنت قلت من بنى مرة بن عباد

(٦٧/١)

قال ألا أحدثك حديثا عسى أن ينفعك الله به قال هات قال حدثنى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله قال لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر قال وقرأ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كأنى أنظر إلى رسول الله يحكى أن نبيا من الانبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون

فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم والدعاء لهم والاعتذار عنهم والاستعطاف بقوله لقومى وفي الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال قال رسول الله ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بى وفي الترمذى من

حديث يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله قال قال رسول الله الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم قال الترمذى كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي أنه قال ما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر وفي بعض المسانيد عنه أنه قال قال الله عز وجل اذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا وفي جامع الترمذى عنه اذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط وفي بعض المسانيد عنه مرفوعا اذا أراد الله بعبد خيرا صب عليه البلاء صبا وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله دخل على امرأة فقال مالك تفرفين قالت الحمى لا بارك الله فيها قال لا تسبى الحمى فإنها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكبر خبث الحديد ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي أنه قال من وعك ليلة فصر ورضى عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقال الحسن أنه ليكفر

(٦٨/١)

عن العبد خطاياها كلها بحمى ليلة وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال دخلت على النبي وهو محموم فوضعت يدي من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمى فقلت ما أشد حماك يا رسول الله قال انا كذلك معاشر الانبياء يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الاجر قال قلت يا رسول الله فأى الناس أشد بلاء قال الانبياء قلت ثم من قال الصالحون ان كان الرجل ليتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباء فيجربها فيلبسها وان كان الرجل ليتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب اليهم من العطاء اليكم

وقال عقبة بن عامر الجهنى قال رسول الله ليس من عمل الا وهو يحتتم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة يا ربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت وقال أبو هريرة إذا مرض العبد المسلم نودى صاحب اليمين أن أجر على عبدى صالح ما كان يعمل وهو صحيح ويقال لصاحب الشمال أقصر عن عبدى ما دام في وثاقى فقال رجل عند أبي هريرة يا ليتنى لا أزال ضاجعا فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا ذكره ابن أبي الدنيا وذكر ايضا عن هلال بن بساق قال كنا قعودا عند عمار بن ياسر فذكروا الاوجاع فقال أعرابي ما اشتكيت قط فقال عمار ما أنت منا أو لست منا ان المسلم يبتلى بلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر وان الكافر أو قال الفاجر يبتلى ببلية فمثله مثل البعير ان أطلق لم يدر لم أطلق وان عقل لم

يدر لم عقل وذكر عن أبي معمر الازدى قال كنا اذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا فقال لنا ذات يوم ألا ان السقم لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا فقال ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك وأعجبنا

وهذا من كمال علمه وفقهه رضى الله عنه فإن الاجر انما يكون على الاعمال الاختيارية ومما تولد منها كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشر من الانفاق وقطع الوادى الا كتب لهم وفي المتولد من اصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار الا كتب لهم به عمل صالح فالثواب مرتبط

(٦٩/١)

بمذنب النوعين وأما الاسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم والنبي انما قال في المصائب كفر الله بها من خطاياها كما تقدم ذكر الفاظه وكذا قوله المرض حطة فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات ولهذا قال من يرد الله به خيرا يصيب منه وقال من يرد الله به خيرا يفرقه في الدين فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياها وقال يزيد بن ميسرة ان العبد ليمرض المرض وما له عند الله من عمل خير فيذكره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياها فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله ان يبعثه مطهرا أو يقبضه ان قبضه مطهرا ولا يرد على هذا حديث أبي موسى الاشعري رضى الله عنه في ثواب من قبض الله ولده وثمره فؤاده بأن يبني له بيتا في الجنة ويسميه بيت الحمد وقال زياد بن زياد مولى ابن عباس رضى الله عنه وعن أصحاب النبي قال دخلنا على النبي وهو ممعوك اى محموم فقلنا اح اح بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ما أشد وعكك قال انا معاشر الانبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفا قال قلنا سبحان الله قال أفعجبتم ان كان النبي من الانبياء ليقتله القمل قلنا سبحان الله قال أفعجبتم ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالمثل قلنا سبحان الله قال أفعجبتم ان كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء

أح بالحاء المهملة هو المعروف من كلامهم ومن قال بالحاء المعجمة فقد غلط وذكر النسائي عن عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة قالت أتيت النبي في نسوة نعوذه فاذا سقاء معلقة يقطر ماؤها من شدة ما كان يجد من الحمى فقلنا لو دعوت الله يا رسول الله أن يذهبها عنك فقال ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم

وقال مسروق عن عائشة رضى الله عنها ما رأيت أحدا أشد وجعا من رسول الله كان يشدد عليه اذا مرض حتى انه لربما مكث خمس عشرة لا ينام

وكان يأخذه عرق الكلية وهو الخاصرة فقلنا يا رسول الله لو دعوت الله فيكشف عنك قال إنا معاشر الانبياء يشدد علينا الوجل ليكفر عنا

وفي المسند والنسائي من حديث أبي سعيد قال قال رجل يا رسول الله أرأيت هذه الامراض التي تصيبنا مالنا بها قال كفارات فقال أبي بن كعب يا رسول الله وان قلت قال شوكة فما فوقها قال فدعا ابى على نفسه عند ذلك أن لا يفارقه الوجل حتى يموت ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة مكتوبة في جماعة قال فما مس رجل جلده بعدها الا وجد حرها حتى مات وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله ان العبد اذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله اذا كان طلقا أو أكفته إلى ناقة طلق بضم الطاء واللام اذا حل عقابها ويقال كفته اليه اذا ضمه اليه ذكره ابن أبي الدنيا

وذكر أيضا عن ابى أمامة الباهلي قال قال رسول الله ان الله ليحرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يحرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز فذلك الذى نجاه الله من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذى يشك بعض الشك ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذى قد أفتتن وذكر أيضا من مراسيل الحسن البصرى عن النبي ان الله ليكفر عن المؤمن خطاياها كلها بحمى ليلة

قال ابن أبي الدنيا قال ابن المبارك هذا من الحديث الجيد قال وكانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب

وذكر عن أنس أن رسول الله دخل على رجل وهو يشتكى فقال قل اللهم انى أسألك تعجيل عافيتك وصبرا على بليتك وخروجا من الدنيا إلى رحمتك وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ان الحمى تخط الخطايا كما تخط الشجرة ورقها وقال أبو هريرة وقد عاد مريضا فقال له ان رسول الله قال ان الله عز و جل يقول هي نارى أسلطها على عبدى المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة

وقال مجاهد الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذى في القرآن فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعاً وانما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار فالحمى للمؤمن تكفر خطاياهم فيسهل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعا والله أعلم

ويدل عليه حديث أبي ریحانة عن النبي الحمى كبر من كبر جهنم وهى نصيب المؤمن من النار وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله مثل المؤمن اذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفاتها ولوفا ذكره ابن أبي الدنيا

وذكر أيضا عن أبي أمامة يرفعه ما من مسلم يصرع صرعة من مرض الا بعث منها طاهرا وذكر عنه مثل المؤمن حيث يصيبه الوباء كمثل الحديد تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها وذكر أيضا عنه مرفوعا ان العبد اذا مرض أوحى الله إلى ملائكته يا ملائكتي أنا قيدت عبدى بقيد من قيودي فإن أقبضه أغفر له وان أعافه فجسد مغفور لا ذنب له

وذكر عن سهل بن أنس الجهني عن أبيه عن جده قال دخلت على أبي الدرداء في مرضه فقلت يا أبا الدرداء انا نحب أن نصح ولا نمرض فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله يقول ان الصداع والمليلة لا يزالان بالمؤمن وان كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل المليلة فعيلة من التملل وأصلها من الملة التي يخبز فيها

وقالت أم سلمة عن النبي ما ابتلى الله عبدا بلاء وهو على طريق يكرهها الا جعل الله ذلك البلاء له كفارة وطهورا ما لم يتزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله يكشفه وقال عطية بن قيس مرض كعب فعاده رهط من أهل دمشق فقالوا كيف تجدك يا أبا اسحاق قال بخير جسد أخذ بذنبه ان شاء ربه عذبه وان شاء رحمه وان بعثه بعثه خلقا جديدا لا ذنب له وقال سعيد ابن وهب دخلنا مع سلمان الفارسي على رجل من كنده نعوذ فقال سلمان

(٧٢/١)

إن المسلم يبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعبا فيما بقى وان الكافر يبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لم أطلق وعقل فلم يدر لم عقل

وذكر أيضا عن أبي أيوب الأنصاري قال عاد رسول الله رجلا من الأنصار وأكب عليه فسأله فقال يا نبي الله ما غمضت منذ سبع فقال رسول الله أى أخى أصبر أى أخى أصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها ثم قال رسول الله ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا

وفي النسائي من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال لأعرابي هل أخذتك أم ملدم قال يا رسول الله وما أم ملدم قال حر يكون بين الجلد والدم قال ما وجدت هذا قال يا أعرابي هل أخذك الصداع قال يا رسول الله وما الصداع قال عرق يضرب على الإنسان في رأسه قال ما وجدت هذا فلما ولى قال رسول الله من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وقالت أم سليم مرضت فعادني رسول الله فقال يا أم سليم أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد قلت نعم يا رسول الله قال أبشرى يا أم سليم

فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه كما يخلص الحديد من النار من خبثه وخرج بعض الصحابة زائر لرجل من إخوانه فبلغه أنه شاك قبل أن يدخل عليه فقال أتيك زائرا و أتيك عائدا ومبشرا قال كيف جمعت هذا قال خرجت وأنا أريد زيارتك فبلغني شكاتك فصارت عيادة وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله قال اذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها أو قال لم ينلها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل وقال الحسن وذكر الوجد أما والله ما هو بشر أيام المسلم أيام نورت له فيها مراحلها وذكر فيها ما نسي من معاده وكفر بما عنه من خطاياهم وقال بعض السلف لولا مصائب الدنيا لو لوردنا الآخرة مفاليس وقال أنس بن مالك رضي الله عنه انتهى رسول الله إلى شجرة فهزها حتى سقط من ورقها ما شاء الله ثم قال المصائب والواجع في إحباط ذنوب أمتي

(٧٣/١)

أسرع مني في هذه الشجرة وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه ما من مسلم إلا وكل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضى الله بأمره بإحدى الحسنين اما بموت واما بحياة فإذا قال له العواد كيف نجدك قال أحمد الله أجدني والله الحمد بخير قال له الملكان أبشر بدم هو خير من دمك وصحة هي خير من صحتك وان قال أجدني مجهودا في بلاء شديد قال له الملكان ابشر بدم هو شر من دمك وبلاء أطول من بلاءك

ولا يناقض هذا قول النبي في وجعه وارساه وقول سعد يا رسول الله قد اشتد بي الوجد وأنا ذو مال وقول عائشة وارساه فإن هذا انما قيل على وجه الاخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه وان أخبر بما تبرأ وتسخطا كان شكوى منه فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب بالنية والقصد

وقال ثابت البناني انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوذ فخرج إلينا ابنه وقال هو مبطلون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه فقال الحسن ان أباك ان يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من أن يأكله التراب

وقال ثابت أيضا دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوذ وهو ثقيل فقال انه من كان في مثل حالتي هذه ملأت الآخرة قلبه كانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب ويذكر عن أنس عن النبي قال اذا مرض العبد ثلاث أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ويذكر عنه لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله جالسا فتيسم فقلنا يا رسول الله مم تبيسمت قال تعجبا للمؤمن من جزعه من السقم ولو كان يعلم ماله في السقم أحب أن يكون

سقيما حتى يلقي الله ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء قلنا يا رسول الله مم تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء قال عجت من ملكين نزلا من السماء يلتزمان عبدا مؤمنا كان في مصلاه يصلي فلا يجدها فعرجا إلى الله فقالا يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا فوجدنا قد حبسته في حبالك فلم نكتب له

(٧٤/١)

شيئا من عمله فقال اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمل في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئا فعلى أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل

ويذكر عنه من وعك ليلة فصبر ورضى بما عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كهينة يوم ولدته أمه ومن مراسيل يحيى بن كثير قال فقد رسول الله سلمان فسأل عنه فأخبر أنه عليل فأثاه يعود فقال شفى الله سقمك وعظم أجرك وغفر ذنبك ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك إن لك من وجعك خللا ثلاثا أما الأولى فتذكرة من ربك يذكر بها وأما الثانية فتمحيص لما سلف من ذنوبك وأما الثالثة فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوة

وقال زياد بن الربيع قلت لابي بن كعب آية من كتاب الله قد أحزنتني قال ما هي قلت من يعمل سوءا يجز به قال ما كنت أراك إلا افقه مما أرى إن المؤمن لا يصيبه عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله فقال النبي يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى والمليحة والشوكة وانقطاع شسعه حتى البضاعة يضعها في كفه فيفقدوها فيفزع لها فيجدها في ضنبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكبر ضنب الانسان ما تحت يده يقال اضطبن كذا اذا حمله تحت يده وقال وهب بن مغبه لا يكون الرجل فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء

وفي بعض كتب الله سبحانه ان الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وانه ليحبه لينظر كيف تضرعه إليه وقال كعب أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدا وقال معروف الكرخي ان الله ليبلى عبده المؤمن بالأقسام والاورام فيشكو إلى أصحابه فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الاورام والاسقام الا لأغسلك من الذنوب فلا تشكني

(٧٥/١)

وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلا قال يا رسول الله ما الاسقام قال أو ما سقمت قط قال لا فقال قم عنا
فلست مؤمنا

وكان عبد الله بن مسعود قد اشتدت به العلة فدخل عليه بعض أصحابه يعودوه وأهله تقول نفسي فداك
ما نطمعك ما نسقيك فأجابها بصوت ضعيف بليت الحرافيف وطالت الضجعة والله ما يسرنى ان الله
نقصنى منه قلامه ظفر

وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم أحسن عليها الثناء فقبل له يا أبا سليمان لأى شيء طلقته قال ما
طلقته لأمر رابى منها ولا ساءنى ولكن لم يصبها عندى بلاء ويذكر عنه ما ضرب على مؤمن عرق الا
كتب الله له به حسنة وحط به عنه سيئة ورفع له به درجة

ولا ينابى هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لا غير لأن حصول الحسنة انما هو بصبره الاختيارى
عليها وهو عمل منه وعاد رجل من المهاجرين مريضا فقال ان للمريض اربعا يرفع عنه القلم ويكتب له
من الاجر مثل ما كان يعمل في صحته ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها فإن
عاش مغفورا له وان مات مات مغفور له فقال المريض اللهم لا أزال مضطجعا

وفي المسند عنه والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سرا شكر
فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن وفي لفظ ان أمر المؤمن كله
عجيب ان أصابته سرا شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له

الباب السابع عشر في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة

الصبر

قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن السفر قال مرض أبو بكر رضى الله عنه فعادوه
فقالوا ألا ندعو لك الطبيب فقال قد رآنى الطبيب قالوا فأى شئ قال لك قال انى فعال لما أريد

(٧٦/١)

وقال الامام احمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه
وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال أيضا أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان
كريما وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا ان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع
الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال ألا انه لا ايمان لمن لا صبر له وقال الصبر مطية لا تكبو
وقال الحسن الصبر كثر من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده وقال عمر بن عبد العزيز ما
أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاذه مكانها الصبر الا كان ما عوضه خيرا مما انتزعه وقال ميمون
بن مهران ما بال أحد شيئا من ختم الخير فما دونه الا الصبر وقال سليمان بن القاسم كل عمل يعرف

ثوابه الا الصبر قال الله تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قال كالماء المنهمر
وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها وفيها واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت وكان محمد بن
شبرمة إذا نزل به بلاء قال سحابة صيف ثم تنقشع وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى وجعلناهم أئمة
يهدون بأمرنا لما صبروا لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رءوسا وقيل للأحنف بن قيس ما الحلم قال أن
تصبر على ما تكره قليلا وقال وهب مكتوب في الحكمة قصر السفه النصب وقصر الحلم الراحة وقصر
الصبر الظفر وقصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجها فدخل يوما
على الوليد في ثياب وشيء وله غدירתان وهو يضرب بيده فقال الوليد هكذا تكون فتیان قريش فعانه
فخرج من عنده متوسنا فوقع في اصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات ثم ان الأكلة
وقعت في رجل عروة فبعث اليه الوليد الأطباء فقالوا إن لم تقطعها سرت إلى باقى الجسد فتهلك

(٧٧/١)

فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع راسه على الوسادة ساعة فغشى
عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهمل ويكبر فأخذها وجعل يقلبها في يده ثم قال أما والذي
حملني عليك انه ليعلم اني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضى الله ثم أمر بها
فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه
أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ولم يزد عليه ثم قال لا أدخل
المدينة انما أنا بها بين شامت بنكية أو حاسد لنعمة فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك فلما دخل قصره
قال له عيسى بن طلحة لا أبا لسانيك أرى هذه المصيبة التي نعزيك فيها فكشف له عن ركبته فقال له
عيسى أما والله ما كنا نعدك للصراع قد أبقي الله أكثرك عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى
رجليك فقال له يا عيسى ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به ولما أرادوا قطع رجله قالوا له لو سقيناك شيئا
كيلا تشعر بالوجع فقال إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره وسئل ابنه هشام كيف كان أبوك يصنع
برجله التي قطعت إذا توضأ قال كان يمسح عليها

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا سلام قال سمعت قتادة يقول قال لقمان وسأله رجل اى شئ
خيلا قال صبر لا يتبعه أذى قال فأى الناس خيرا قال الذى يرضى بما أوتى قال فأى الناس أعلم قال
الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه قيل فما خير الكثر من المال أو من العلم قال سبحانه الله بل المؤمن
العالم الذى ان ابتغى عنده خيرا وجد وان لم يكن عنده كف نفسه وبحسب المؤمن أن يكف نفسه وقال

حسان بن أبي جبلة من بث فلم يصبر ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعا إلى النبي وان صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله وقال حسان ابن أبي جبلة أيضا في قوله تعالى فصبر جميل قال لا شكوى فيه ورفع ابن أبي الدنيا أيضا

وقال مجاهد فصبر جميل في غير جزع وقال عمرو بن قيس فصبر جميل قال الرضا بالمصيبة والتسليم وقال بعض السلف فصبر جميل لا شكوى فيه وقال همام

(٧٨/١)

عن قتادة في قوله تعالى وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم قال كظم على حزن فلم يقل إلا خيرا وقال يحيى بن المختار عن الحسن الكظيم الصبور وقال همام عن قتادة في قوله تعالى وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم أى كמיד أى كمد الحزن وقال الحسن ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة مخزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم

وقال عبد الله بن المبارك أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد ابن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر فقله اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله انا لله فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه ماله كما بما يريد وقوله راجيا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله

وانا اليه راجعون أى ترد اليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة وقوله وقد يجزع الرجل وهو يتجلد أى ليس الصبر بالتجلد وانما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر

وقال يونس بن يزيد سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن ما منتهى الصبر قال أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه وقال قيس بن الحجاج في قول الله فاصبر صبرا جميلا قال أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو وكان شمر اذا عزي مصابا قال اصبر لما حكم ربك وقال أبو عقيل رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه ازار في موت واقد بن عبد الله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط الا ضربها

قال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال قالت امرأة من قريش أما والذي لا خلد الا لوجهه ... ومن ليس في العز المنيع له كفو

لئن كان بدء الصبر مرا مذاقه ... لقد يجنى من غبه الثمر الحلو قال وأنشدني عمرو بن بكير

صبرت فكان الصبر خير مغبة ... وهل جزع يجدى على فأجزع

ملكتم دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

قال وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي
 نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نواب الدهر
 لا تجزعي يا خول واصبري ... ان الكرام بنوا على الصبر
 قال وحدثني عبد الله بن محمد بن اسماعيل التيمي أن رجلا عزي رجلا في ابنه فقال انما يستوجب على
 الله وعده من صبر له بحقه فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر فإنها أعظم المصيبتين
 عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام وعزي ابن أبي السماك رجلا فقال عليك بالصبر فيه يعمل من
 احتسب واليه يصير من جزع وقال عمر بن عبد العزيز أما الرضاء فمترلة عزيزة أو منيعة ولكن جعل
 الله في الصبر معولا حسنا ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال رحمك الله لقد كنت لى وزيرا
 وكنت لى معينا قال والناس ييكون وما يقطر من عينيه قطرة وأصيب مطرف بن عبد الله في ابن له فأتاه
 قوم يعزونه فخرج اليهم أحسن ما كان بشرا ثم قال انى لأستحي من الله أن أتضعض لمصيبة وقال عمرو
 بن دينار قال عبيد بن عمير ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيء والظن
 السيء

وقال ابن أبي الدنيا حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزى قد مات ابن لى نفيس فقلت لأمه اتق الله
 واحتسبيه واصبري فقالت مصيبتى أعظم من أن افسدها بالجزع قال ابن أبي الدنيا وأخبرني عمر بن بكر
 عن شيخ من قريش قال مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن وعبيد الله يومئذ قاض على
 البصرة وأميرا فكثير من يعزيه فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه اذا ترك شيئا مما
 كان يصنعه فقد جزع

وقال خالد بن أبي عثمان القرشى كان سعيد بن جبير يعزى في ابني فرآنى أطوف بالبيت متقنعا فكشف
 القناع عن رأسى وقال الاستكانة من الجزع

فصل وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم لا بأس أن يجعل المصاب

على رأسه ثوبا يعرف به قالوا لأن التعزية سنة وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه ففيه نظر وانكره
 شيخنا ولا ريب أن السلف لم يكونوا

يفعلوا شيئا من ذلك ولا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين والآثار المتقدمة كلها صريحة في رد
 هذا القول وقد أنكر اسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه وقال هو من الجزع

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيرون شيئاً من زيههم قبل المصيبة ولا يتركون ما كانوا يعملونه فهذا كله مناف للصبر والله سبحانه أعلم

الباب الثامن عشر في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق

التياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده واختاره أبو اسحاق الشيرازي وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت ورخصوا فيه قبل خروج الروح واحتجوا بحديث جابر بن عتيك أن رسول الله جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به فلم يجب فاسترجع وقال غلبنا عليك يا أبا الربيع فصاح النسوة وبكين فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله دعهن فاذا وجب فلا تبكين باكية قالوا وما الوجوب يا رسول الله قال الموت رواه أبو داود والنسائي قالوا وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله قال ان الميت ليعذب ببكاء أهله عليه وهذا إنما هو بعد الموت وأما قبله فلا يسمى ميتاً وعن ابن عمر أن رسول الله لما قدم من أحد سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن فقال لكن حمزة لا بواكي له فجنن نساء الانصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم رواه الامام أحمد وهذا صريح في نسخ الاباحة المتقدمة

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذراً فاذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء فلا ينفع البكاء

(٨١/١)

قال الجوزون قال جابر بن عبد الله أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكي فجعلوا ينهونني ورسول الله لا ينهاني فجعلت عمى فاطمة تبكي فقال النبي تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه متفق عليه

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر قال اشتكى سعد بن عباد شكاوى له فأتاه النبي يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده في غشية فقال قد قضى قالوا لا يا رسول الله فبكى رسول الله فلما رأى القوم بكاءه بكوا فقال ألا تسمعون ان الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه أو يرحم

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أسامه بن زيد أن رسول الله انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت فرفع اليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة ففاضت عيناه فقال سعد ما هذا يا رسول الله قال هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء

وفي مسند الامام أحمد من حديث بن عباس قال ماتت رقية ابنة رسول الله فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فقال النبي دعهن يا عمر يبكين وإياكن ونعيق الشيطان ثم قال انه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة وما كان من اليد ومن اللسان فمن الشيطان وفي المسند أيضا عن عائشة أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله وأبو بكر وعمر قالت فوالذى نفسى بيده انى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتى وفي المسند أيضا عن أبى هريرة قال مر على النبي ببجزة يبكى عليها وأنا معه ومعه عمر بن الخطاب فانتهر عمر اللاتى يبكين عليها فقال النبي دعهن يا ابن الخطاب فان النفس مصابة وان العين دامعة والعهد قريب

وفي جامع الترمذى عن جابر بن عبد الله قال أخذ النبي بيد عبد الرحمن ابن عوف فانطلق إلى ابنه ابراهيم فوجده يجود بنفسه فأخذه النبي فوضعه في حجره فبكى فقال له أتبكى أو لم تكن نفيت عن البكاء قال لا ولكن نفيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند مصيبة حمش الوجه وشق الجيوب

(١٢/١)

ورثة الشيطان قال الترمذى هذا حديث حسن وقد صح عنه أنه زارقير أمه فبكى وأبكى من حوله وقد صح عنه أنه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه وصح عنه أنه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان وصح عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قبل النبي وهو ميت وبكى فهذه إثنا عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء فتعين حمل أحاديث النهى على البكاء الذى معه ندب ونياحة ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه وفي بعضها يعذب بما ينح عليه وقال البخارى في صحيحه قال عمر دعهن يبكين على أبى سليمان يعنى خالد بن الوليد ما لم يكن نقع أو لقلقة والنقع حث التراب والقلقة الصوت

وأما دعوى النسخ في حديث حمزة فلا يصح اذ معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد ويدل على ذلك أن نصوص الاباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد منها حديث أبى هريرة إذ اسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة ومنها البكاء على زينب وكان موتها في السنة الثامنة أيضا ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته في الخامسة ومنها البكاء عند قبر أمه وكان عام الفتح في الثامنة

وقولهم انما جاز قبل الموت حذرا بخلاف ما بعد الموت جوابه أن الباكي قبل الموت يبكى حزنا وحزنه بعد الموت أشد فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التى يرجى فيها وقد أشار النبي إلى ذلك بقوله تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وانا بك يا ابراهيم لخزونون فصل وأما الندب والنياحة فنص أحمد على تحريمها قال في رواية حنبل النياحة معصية وقال أصحاب الشافعى وغيرهم النوح حرام

وقال ابن عبد البر أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد يكره تزيها وهذا لفظ أبي الخطاب في الهداية قال ويكره الندب والنياحة وشمس الوجوه وشق الجيوب والتحفي والصواب القول بالتحريم لما في

(١٨٣/١)

الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي قال ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية وفي الصحيحين أيضا عن أبي بردة قال وجع أبو موسى وجعا فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئا فلما أفاق قال أنا بريء مما يريء منه رسول الله فان رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة وفي الصحيحين أيضا عن المغيرة بن شعبة قال سمعت رسول الله يقول إن من ينح عليه يعذب بما ينح عليه وفي الصحيحين أيضا أم عطية قالت أخذ علينا رسول الله في البيعة ألا ننوح فما وفت منا امرأة إلا خمس نسوة

وفي صحيح البخارى عن ابن عمر أن النبي قال الميت يعذب في قبره بما ينح عليه وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعرى أن النبي قال أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن الفخر بالاحساب والطعن في الانساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة وقال النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب

وفي سنن ابى داود عن أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبيعات قالت كان فيما أخذ علينا رسول الله في المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه أن لا نخمش وجهها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننفض شعرا وفي المسند عن انس قال أخذ النبي على النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن يا رسول الله ان نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الاسلام فقال لا إسعاد في الاسلام وقد تقدم قوله ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان وقوله نمت عن صوتين أحقين فاجرين صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنه شيطان

وفي مسند الامام أحمد من حديث أبي موسى أن رسول الله قال الميت يعذب ببكاء الحى اذا قالت النائحة واعضداه واناصره واكاسياه جبذ الميت وقيل له أنت عضدتها أنت ناصرها أنت كاسيها وفي صحيح البخارى عن النعمان ابن بشير قال أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول واجبله

(١٨٤/١)

واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين أفاق ما قلت لى شيئا إلا قيل لى أنت كذا فلما مات لم تبك عليه وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهى مشتملة على التسخط على الرب وفعل ما يناقض الصبر والاضرار بالنفس من لطم الوجه وحلق الشعر ونتفه والدعاء عليها بالويل والثبور والتظلم من الله سبحانه وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا

وقال المبيحون لجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له قد روى حرب عن وائلة بن الأسقع وأبى وائل أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان

قالوا وفي الصحيحين عن أم عطية قالت لما نزلت هذه الآية يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعينك على أن لا يشركن بالله شيئا إلى قوله ولا يعصينك في معروف كان منه النياحة فقلت يا رسول الله الا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لى من أن أسعدهم فقال الا آل فلان وفي رواية لهما أنها قالت بايعنا رسول الله فقراً علينا أن لا يشركن بالله شيئا ونهانا عن النياحة فقبضت منا امرأة يدها فقالت فلانة أسعدتنى فأنا أريد أن أجزيها قالت فما قال لها شيئا فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها قالوا وهذا الاذن لبعضهن في فعله يدل على أن النهى عنه تنزيه لا تحريم ويتعين حمله على الجرد من تلك المفاسد جمعاً بين الأدلة

قال المحرمون لا تعارض سنة رسول الله بأحد من الناس كائناً من كان ولا تضرب سننه بعضها ببعض وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتل تأويلاً وقد انعقد عليها الاجماع وأما المرأة التى قال لها الا آل فلان والمرأة التى سكنت عنها فذلك خاص بهما لوجهين أحدهما أنه قال لغيرهما لما سأله ذلك لا اسعاد في الاسلام والثاني أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالاسلام وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما

(١٥/١)

وأما الكلمة اليسيرة اذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على النبي بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال وانياء واخليلاه واصفياه وفي صحيح البخارى عن أنس أيضاً قال لما ثقل على النبي جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة واكرب أبتاه فقال ليس على أبيلك كرب بعد اليوم فلما مات قالت يا أبتاه أجاب ربا دعاه يا أبتاه جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل أنعاه فلما دفن قالت فاطمة يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله

التراب وقال النبي وانا بك يا ابراهيم نحزنون وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا اسخاط له فهو كمجرد البكاء فصل وأما قول النبي ان الميت ليعذب بالنياحة عليه فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله والمغيرة بن شعبة وروى نحوه عن عمران بن حصين وأبي موسى رضى الله عنهم فاختلفت طرق الناس في ذلك فقالت فرقة يتصرف الله في خلقه بما يشاء وأفعال الله لا تعلل ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب اليه لأن الله خالق الجميع والله تعالى يؤلم الاطفال والبهائم والمجانين بغير عمل وقالت فرقة هذه الاحاديث لا تصح عن رسول الله وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين واحتجت بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت انكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا متهمين ولكن السمع يخطئ وقالت انما مر النبي على قبر يهودى فقال ان صاحب هذا القبر يعذب وأهله يكون عليه

وفي رواية متفق عليها انما قال رسول الله ان الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه وقالت حسبكم القرآن ولا تزر وازرة وزر أخرى وقالت فرقة أخرى منهم المزن وغيره ان ذلك محمول على من أوصى به اذا كانت عادتهم ذلك وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة

(١٦/١)

اذا مت فانعني بما أنا أهله ... وشقى على الجيب يا ابنة معبد وقول لبید
فقوما فقولاً بالذى قد علمتما ... ولا تخمشا وجهها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا صديقه ... أضاع ولا خان الامين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
وقالت طائفة هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك اذا لم ينههم عنه لأن ترك فحیه دليل على رضاه
به وهذا قول ابن المبارك وغيره قال أبو البركات ابن تيمية وهو أصح الاقوال كلها لأنه متى غلب على
ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضى به وصار كمن ترك النهى عن المنكر مع القدرة عليه فأما اذا
أوصاهم بتركه فخالقوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك وقد حصل بذلك العمل بالآية مع اجراء الخير
على عمومهم في كثير من الموارد وانكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعول عليه فإنهم قد يحضرون
ما لا نحضره ويشهدون ما نغيب عنه واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصا في حق خمسة من أكابر
الصحابة

وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات أخر ثم هي محجوجة

بروايتها عنه أنه قال ان الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذابا بفعل غيره مع كونه مخالفا لظاهر الآية لم يمنع ذلك في حق المسلم ان الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر والله أعلم فصل ولا تحتاج هذه الاحاديث إلى شئ من هذه التكلفات وليس فيها بحمد الله اشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع ولا تتضمن عقوبة الانسان بذنب غيره فإن النبي لم يقل ان الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم وانما قال يعذب بذلك ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه والعذاب هو الألم الذي يحصل له وهو أعم من العقاب والاعم لا يستلزم الاخص وقد قال النبي السفر قطعة من العذاب وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر حتى ان الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الانسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم وهو

(١٧/١)

البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معروف في نظمهم ونثرهم تألم الميت بذلك في قبره فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه وهذه طريقة شيخنا في هذه الاحاديث وبالله التوفيق

الباب التاسع عشر في أن الصبر نصف الايمان والايمان نصفان نصف صبر

ونصف شكر قال غير واحد من السلف الصبر نصف الايمان وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله ان في ذلك آيات لكل صبار شكور في سورة ابراهيم وفي سورة جمعسق وفي سورة سبأ وفي سورة لقمان وقد ذكر لهذا التصنيف اعتبارات

أحدها أن الايمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهي ترجع إلى شطرين فعل وترك فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله في هذين الشئين فعل المأمور وترك المحذور

الاعتبار الثاني أن الايمان مبنى على ركنين يقين وصبر وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فباليقين يعلم حقيقة الامر والنهي والثواب والعقاب وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ولا يحصل له التصديق بالامر والنهي انه من عند الله وبالثواب والعقاب الا باليقين ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحذور الا بالصبر فصار الصبر نصف الايمان والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه

الاعتبار الثالث أن الايمان قول وعمل والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح وبيان

ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا كما قال عن قوم فرعون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم وكما قال عن قوم

(٨٨/١)

عاد وقوم صالح وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنا بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالى أولياء الله ويعادى أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمطابقة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرا وباطنا وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال ايمانه حتى يفعل ما امر به

فهذه الاركان الاربعة هي أركان الايمان التي قام عليها بناؤه وهي ترجع إلى علم وعمل ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل الا بالصبر فصار الايمان نصفين أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل

الاعتبار الرابع أن النفس لها قوتان قوة الاقدام وقوة الاحجام وهي دائما تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحتجم عما تكرهه والدين كله اقدام واحجام اقدام على طاعة واحجام عن معاصي الله وكل منهما لا يمكن حصوله الا بالصبر

الاعتبار الخامس أن الدين كله رغبة ورهبة فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخارى في صحيحه اللهم انى أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت امرى اليك وألجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك فلا تجد المؤمن أبدا الا راغبا وراهبا والرغبة والرهبة لا تقوم الا على ساق الصبر فرهيته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر

الاعتبار السادس ان جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والآخرة أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الاخرى وأشرف الاقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الايمان ففعل ما ينفعه هو الشكر وترك ما يضره هو الصبر

(٨٩/١)

الاعتبار السابع ان العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر
الاعتبار الثامن إن العبد فيه داعيان داع يدعو إلى الدنيا وشهواتها ولذا دعا وداع يدعو إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأولياته من النعيم المقيم فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر
الاعتبار التاسع ان الدين مداره على أصلين العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق
الاعتبار العاشر ان الدين مبنى على أصلين الحق والصبر وهما المذكوران في قوله تعالى وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه فكان الصبر نصف الايمان والله سبحانه وتعالى أعلم

الباب العشرون في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر حكى

أبو الفرج ابن الجوزى في ذلك ثلاثة أقوال أحدها ان الصبر أفضل والثاني ان الشكر أفضل والثالث أنهما سواء كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها في احتجاجها بعون الله وتوفيقه قال الصابرون قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعا وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر ويكفي

(٩٠/١)

في فضله قوله الطاعم الشاكر بمثلة الصائم الصابر فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله مدمن الخمر كعابد وثن ونظائر ذلك قالوا وإذا وازنا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر اضعافها ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الاعمال كانت الاحاديث فيهما في سائر الابواب فلا تجد الاحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد قالوا وايضا فالصبر يدخل في كل باب بل في كل مسألة من مسائل الدين ولهذا كان من الايمان بمثلة الرأس من الجسد قالوا وايضا فالله سبحانه وتعالى علق على الشكر الزيادة فقال وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم

لأزيدنكم وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب وايضا فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال
وسيجزى الله الشاكرين وقيد جزاء الصابرين بالاحسان فقال ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما
كانوا يعملون قالوا وقد صح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم له الا الصوم فإنه لى
وأنا أجرى به

وفي لفظ كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها قال الله تعالى الا الصوم فإنه لى وأنا أجرى
به وما ذاك الا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما في الحديث نفسه يدع شهوته وطعامه وشرابه
من أجله ولهذا قال النبي لمن سأله عن أفضل الاعمال عليك بالصوم فإنه لا عدل له ولما كان الصبر
حبس النفس عن اجابة داعى الهوى وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن اجابة داعى شهوة
الطعام والشراب والجماع فسر الصبر في قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة أنه الصوم وسمى رمضان
شهر الصبر وقال بعض السلف الصوم نصف الصبر وذلك أن الصبر حبس النفس عن اجابة داعى
الشهوة والغضب فإن النفس تشتت في حصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها والصوم
صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ولكن من تمام الصوم
وكماله صبر النفس عن اجابة داعى الامرين وقد أشار إلى ذلك النبي في الحديث الصحيح وهو قوله

(٩١/١)

إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحد سابه أو شاتمه فليقل انى صائم فأرشد إلى
تعديل قوى الشهوة والغضب وأن الصائم ينبغي له أن يحتذى من افسادهما لصومه فهذه تفسد صومه
وهذه تحبط أجره كما قال في الحديث الاخر من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن
يدع طعامه وشرابه قالوا ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى أنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم
هم الفائزون فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى والله مع الصابرين لا شئ يعدل معيته لعبده كما
قال بعض العارفين ذهب الصابرون بخير الدنيا والاخرة لأنهم نالوا معية الله وقال تعالى واصبر لحكم ربك
فانك بأعيننا وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه
وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم
وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وهذا
مفهم لخصر الهدى فيهم وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه وأمر رسوله أن يتشبه بصبر
أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك
قالوا وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها والزهد فيها
حال الصابر والاستكثار منها حال الشاكر قالوا وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين

مرا بكثر فتخطاه أحدهما ولم يلتفت اليه وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى أيهما أفضل فقال الذى لم يلتفت اليه وأعرض عنه أفضل عند الله
قالوا ويدل على صحة هذا أن النبي عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها وقال بل أجوع يوما وأشبع يوما ولو أخذها لأنفقتها في مرضاة الله وطاعته فأثر مقام الصبر عنها والزهد فيها قالوا وقد علم أن الكمال الانساني في ثلاثة أمور علوم يعرفها وأعمال يعمل بها وأحوال ترتب له على علومه وأعماله وأفضل العلم والعمل والحال العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه

(٩٢/١)

أشرف ما في الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة والا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التي عليه والحن التي امتحن بها والا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم في فضلها بحسب افضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب افضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه وكذلك الاعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب افضائها إلى المقصود وهكذا يجب أن يكون فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها فالعمل المعد للقلب المهيب له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيها عنها وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها

وها هنا أمر ينبغي التفطن له وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شئ منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفرغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح

وولى الامر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم وانصاف المظلوم من الظالم واقامة الحدود ونصر الحق وقمع المبطل

(٩٣/١)

أفضل من عبادة سنين من غيره ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته وتأمل تولية النبي لعمر بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر بل قال له إني أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم وأمره وغيره بالصيام وقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له وأمر آخر بأن لا يغضب وأمر ثالثا بأن لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له فاذا استفرغ وسعه على غيره وفاق الناس فيه كما قيل ما زال يسبق حتى قال حاسده ... هذا طريق إلى العلياء مختصر وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا اذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به واذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه فالشح المطاع مثلا من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها وكذلك داء اتباع الهوى والاعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد وانما يزيله اخراجه من القلب بضده ولو قيل ايما افضل الخبز أو الماء لكان الجواب أن هذا في موضعه أفضل وهذا في موضعه أفضل واذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال فهو دواء للداء الذى في القلب يمنعه من المقصود وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا فإن قيل فقد حث الشرع على الاعمال وانفصلوا عنه بأن قالوا الطبيب اذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراى لعينه ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك قالوا واذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة وحال

(٩٤/١)

الشاكِر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم فصل قال الشاكرون لقد تعديتم طوركم
وفضلتم مقاما غيره أفضل منه وقدمتم الوسيلة على الغاية والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه والعمل
الكامل على الأكمل والفاضل على الأفضل ولم تعرفوا للشكر حقه ولا وفيتموه مرتبته وقد قرن تعالى
ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة اليهما
وعونا عليهما قال تعالى اذكروني اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون
وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال ما يفعل
الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم أى ان وفيتم ما خلقتكم له وهو الشكر والايمان فما أصنع بعذابكم
هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال وكذلك فتنا بعضهم
ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وقسم الناس إلى شكور وكفور
فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله قال تعالى في الانسان إنا هديناه
السييل اما شاكرا واما كفورا

وقال نبيه سليمان هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فان
ربى غنى كريم وقال تعالى وأذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد وقال تعالى
ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم وهذا كثير في القرآن
يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين
والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الايمان فلم ينقلبوا على أعقابهم وعلق سبحانه المزيد بالشكر
والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله فسوف
يغنيكم الله من فضله ان شاء وقوله في الاجابة فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقوله

(٩٥/١)

في الرزق يرزق من يشاء وفي المغفرة يغفر لمن يشاء والتوبة ويتوب الله على من يشاء وأطلق جزاء
الشكر اطلاقا حيث ذكر كقوله وسنجزى الشاكرين وسيجزى الله الشاكرين ولما عرف عدو الله ابليس
قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال ثم لأتينهم
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ووصف الله سبحانه
الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى وقليل من عبادى الشكور
وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول اللهم اجعلنى من الاقلين فقال
ما هذا فقال يا أمير المؤمنين ان الله قال وما آمن معه الا قليل وقال تعالى وقليل من عبادى الشكور

وقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم فقال عمر صدقت وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الارض بالشكر فقال ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته اشارة إلى الاقتداء به فانه أبوهم الثاني فان الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا الا من ذريته كما قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فانه كان عبدا شكورا

وقد أخبر سبحانه انما يعبد من شكره فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون وأمر عبده موسى ان يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين وأول وصية وصى الله بها الانسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى وان تشكروا يرضه لكم وأثنى سبحانه على خليله ابراهيم بشكر نعمه فقال ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به في الخير وانه قانتا لله والقانت هو المطيع المقيم

(٩٦/١)

على طاعته والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكرا لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبده لأجلها والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ويجوز أن يكون قوله لعلكم تشكرون تعليلا لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالنقوى ولهما معا وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والامر وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وارساله الرسول في قوله تعالى كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون قالوا فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره والصبر انما حمد لافضائه وايصاله إلى الشكر فهو خادم الشكر وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قام حتى تفتطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وثبت في المسند والترمذي أن النبي قال لمعاذ والله اني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني ذكرك

وشكرك وحسن عبادتك وقال ابن أبي الدنيا حدثنا اسحاق بن اسماعيل حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون عن هشام بن عروة قال كان من دعاء النبي اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك قال وحدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن اسماعيل حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله قال أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا على البلاء صابرا وزوجة لا تبغيه خونا في نفسها ولا في ماله وذكر أيضا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي قال ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها وما علم الله من عبد

(٩٧/١)

ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى ورضوان من الله أكبر في مقابلة شكره بالحمد وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح حدثنا أبو زهير يحيى بن عطار القرشى عن أبيه قال قال رسول الله لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة لأن الله تعالى يقول لمن شكرتم لأزيدنكم وقال الحسن البصرى إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة والجالب لأنه يجلب النعم المفقودة وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همدان إن النعمة موصولة بالشكر والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد

وقال عمر بن عبد العزيز قيدوا نعم الله بشكر الله وكان يقال الشكر قيد النعم وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن ابتلى فأصبر وقال الحسن أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال وأما بنعمة ربك فحدث والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال وقال علي بن الجعدى سمعت سفيان الثورى يقول إن داود عليه الصلاة والسلام قال الحمد لله حمدا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله اليه يا داود أتعبت الملائكة

وقال شعبة حدثنا المفضل بن فضالة عن أبي رجاء العطاردى قال خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال ان رسول الله قال إذا أنعم الله على عبد نعمة يجب أن يرى أثر

نعمته على عبده وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي قال كلوا واشربوا وتصدقوا في غير محيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده

(٩٨/١)

وذكر شعبة عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال أتيت رسول الله وأنا قشف الهيئة فقال هل لك من مال قال قلت نعم قال من أى المال قلت من كل المال قد آتاني الله من الابل والخيول والرقيق والغنم قال فإذا آتاك الله مالا فليرى عليك

وفي بعض المراسيل ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه وروى عبد الله بن يزيد المقرئ عن أبي معمر عن بكير بن عبد الله رفعه من أعطى خيرا فرؤى عليه سمي حبيب الله محدثا بنعمة الله ومن أعطى خيرا ولم ير عليه سمي بغيض الله معاديا لنعمة الله وقال فضيل بن عياض كان يقال من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى ولنن شكرتم لأزيدنكم وقال من شكر النعمة أن يحدث بها وقد قال تعالى يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرنى لأصرعك بين معاصي يا ابن آدم اتقنى ونم حيث شئت

وقال الشعبي الكشر نصف الايمان واليقين الايمان كله وقال أبو قلابة لا تضركم دنيا شكرتموها وقال الحسن إذا أنعم الله على قوم سألمهم الشكر فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث نعمته عليهم عذابا وقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذى لا يشكر نعمه قال الحسن إن الانسان لربه لكنود يعد المصائب وينسى النعم وقد أخبر النبي إن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب قال لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهى في الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله

يا أيها الظالم في فعله ... والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة والفرقة

(٩٩/١)

عذاب وقال مطرف بن عبد الله نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ولأن أعافى أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر ورأى بكر بن عبد الله المزني حمالا عليه حملة وهو يقول الحمد لله أستغفر الله قال فانتظرت حتى وضع ما على ظهره وقلت له أما تحسن غير هذا قال بلى أحسن خيرا كثيرا أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنوب فأحمد الله على نعمه السابعة وأستغفره لذنوبي فقلت الحمال أفقه من بكر

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال خرج رسول الله على أصحابه فقرا عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال قرأها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم كنت كلما أتيت على قوله فبأى آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وقال مشعر لما قيل لآل داود اعملوا آل داود شكرا لم يأت على القوم ساعة الا وفيهم مصلى وقال عون بن عبد الله قال بعض الفقهاء انى رأيت في أمرى لم أر خيرا الا شر معه الا المعافاة والشكر فرب شاكر في بلائه ورب معافى غير شاكر فإذا سألتهم الله فاسألوهما جميعا وقال أبو معاوية لبس عمر بن الخطاب قميصا فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به في حياتى ثم مد يديه فنظر شيئا يزيد على يديه فقطعه ثم أنشأ يحدث قال سمعت رسول الله يقول من لبس ثوبا أحسبه جديدا فقال حين يبلغ ترقوته أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكينا لم يزل في جوار الله وفي ذمة الله وفي كنف الله حيا وميتا ما بقى من ذلك الثوب سلك وقال عون بن عبد الله لبس رجل قميصا جديدا فحمد الله فغفر له فقال رجل ارجع حتى أشتري قميصا فألبسه وأحمد الله وقال شريح ما أصيب عبد بمصيبة الا كان لله عليه فيها ثلاث نعم ألا تكون كانت في دينه وألا تكون أعظم مما كانت وأنها لا بد كائنه فقد كانت

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى

(١٠٠/١)

نعمة أنعم الله بها عليه الا قال اللهم انى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرا وأن أكفرها بعد أن عرفتھا وأن أنساها ولا أثنى بها وقال روح بن القاسم تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره فقال الحسن هذا أحق وهل يقوم بشكر الماء البارد

وفي بعض الآثار الالهية يقول الله عز وجل ابن آدم خبرى اليك نازل وشرك إلى صاعد أتحب اليك بالنعم وتبغض إلى بالمعاصى ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح قال ابن أبي الدنيا حدثني أبو على قال كنت أسمع جارا لي يقول في الليل يا الهى خيرك على نازل وشرى اليك صاعد كم من ملك كريم قد صعد اليك منى بعمل قبيح وأنت مع غناك عنى تتحب إلى بالنعم

وأنا مع فقرى اليك وفاقى أتمقت اليك بالمعاصى وأنت في ذلك تجربنى وتسترنى وترزقنى وكان أبو المغيرة اذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر يتجيب إلينا ربنا وهو غنى عنا ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون وقال عبد الله بن ثعلبة الهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد وكان معاوية بن قرة اذا لبس ثوبا جديدا قال بسم الله والحمد لله وقال أنس بن مالك ما من عبد توكل بعبادة الله الا عزم الله السموات والارض تعبر رزقه فجعله في أيدي بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر وان أباه وجد الغنى الحميد عبادا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له وقال يونس بن عبيد قال رجل لأبي تيممة كيف أصبحت قال أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملى وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد المقبرى عن أبيه عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام قال يارب ما الشكر الذى ينبغى لك قال لا يزال لسانك رطبا من ذكرى وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال دعا

(١٠١/١)

رجل من الأنصار من أهل قباء النبي فانطلقنا معه فلما طعم وغسل يديه قال الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذى أطعم من الطعام وسقى من الشراب وكسى من العرى وهدى من الضلالة وبصر من العمى وفضل على كثير من خلقه تفضيلا الحمد لله رب العالمين وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن النبي دخل عليها فرآى كسرة ملقاة فمسحها وقال يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها فلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم ذكره ابن أبي الدنيا وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال قرأت في مسألة داود أنه قال يا رب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك الا بنعمك قال فأتاه الوحي يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى قال بلى يا رب قال فإني نرضى بذلك منك شكرا وقال عبد الله بن أحمد حدثنا أبو موسى الانصارى حدثنا أبو الوليد عن سعيد ابن عبد العزيز قال كان من دعاء داود سبحانه مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبد الله بن الحارث قال أوحى الله إلى داود أحبنى وأحب عبادتى

وحببني إلى عبادي قال يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحبيك إلى عبادك قال تذكرني عندهم
فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن فجعل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدسست أسماؤه وجل ثناؤه
ولا اله غيره

وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال سمعت وهبا يقول وجدت في كتاب آل داود بعزتي ان من
اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فأني أجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم
يعتصم بي فأني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ثم أكله
إلى نفسه

(١٠٢/١)

كفي بي لعبدي مالا اذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني وأجبتة قبل أن يدعوني وإني أعلم
بما جتته التي ترفق به من نفسه

وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل
والنهار على أهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار الا وانسان من آل داود قائم يصلي فيها قال فعمهم
تبارك وتعالى في هذه الآبة اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور
قال أحمد وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة قال داود يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة
أطول ذكرا لك مني فأوحى الله اليه نعم الصفدع وأنزل الله عليه اعملوا آل داود شكرا وقليل من
عبادي الشكور قال يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم علي ثم ترزقني على النعمة الشكر ثم
تزيدني نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك قال الآن عرفتني يا داود قال أحمد
وحدثنا عبد الرحمن حدثنا الربيع بن صبيح عن الحسن قال قال نبي الله داود الهى لو أن لكل شعرة مني
لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال قال موسى يا رب كيف لي أن أشكر
وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله قال فأثاه الوحي يا موسى الآن شكرتني
قال بكر بن عبد الله ما قال عبد قط الحمد لله الا وجبت عليه نعمة بقوله الحمد لله فجزاء تلك النعمة
أن يقول الحمد لله فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله وقال الحسن سمع نبي الله رجلا يقول الحمد لله
بالاسلام فقال انك لتحمد الله على نعمة عظيمة وقال خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يقول
ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا
للإسلام

وقال سليمان التيمي ان الله سبحانه أنعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على قدرتهم وكان الحسن اذا ابتداء حديثه يقول الحمد لله اللهم ربنا لك الحمد بما

(١٠٣/١)

خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا لك الحمد بالاسلام والقرآن ولك الحمد بالأهل والمال والمعاافة كبت عدونا وبسطت رزقنا وأظهرت أمننا وجمعت فرقنا وأحسنست معافاتنا ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية أو خاصة أو عامة أو حى أو ميت أو شاهد أو غائب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد اذا رضيت

وقال الحسن قال موسى يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت اليه خلقتك بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له فقال يا موسى علم أن ذلك منى فحمدنى عليه فكان ذلك شكر ما صنعت اليه وقال سعد بن مسعود الثقفي انما سمى نوح عبدا شكورا لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما الا حمد الله وكان على بن أبي طالب اذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها

وقال مخلد بن الحسين كان يقال الشكر ترك المعاصى وقال أبو حازم كان نعمة لا تقرب من الله فهي بلية وقال سليمان ذكر النعم يورث الحب لله وقال حماد بن زيد حدثنا ليث عن أبي بردة قال قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لى ألا تدخل بيتنا دخله النبي ونطعمك سويقا وتمرا ثم قال ان الله اذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم فيقول العبد ما آية ذلك فيقول آية ذلك انك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبك قال يذكره حتى يذكر فيقول آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال انى لأرجو الله أن لا يقعد الله عبدا بين يديه فيعذبه

وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان عن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال قال رسول الله يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عزوجل لنعمة من نعمه خذى حقك من حسناته فما تترك له من حسنة الا ذهبت بها

(١٠٤/١)

وقال بكر بن عبد الله المزني يترل بالعبد الامر فيدعو الله فيصرف عنه فيأتيه الشيطان فيضعف شكره يقول ان الامر كان أيسر مما تذهب اليه قال أو لا يقول العبد كان الامر أشد مما أذهب اليه ولكن الله صرفه عني وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة بن يسار قال بينا داود عليه السلام في محرابه اذ مرت به ذرة فنظر اليها وفكر في خلقها وعجب منها وقال ما يعجز الله بهذه فأنطقها الله فقالت يا داود أتعجبك نفسك فو الذي نفسى بيده لأننا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله وقال أيوب ان من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء به النبي وقال سفيان الثوري كان يقال ليس بفقير من لم يعد البلاء نعمة والرخاء معصية وقال زازان مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية قال ابن أبي الدنيا أنشدني محمود الوراق اذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له في مثلها يجب الشكر فكيف وقوع الشكر الا بفضله ... وان طالت الايام واتصل العمر اذا مس بالسراء عم سرورها ... وان مس بالضراء أعقبها الاجر وما منهما الا له فيه منة ... تضيق بها الاوهام والبر والبحر وقد روى الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله يعنى قال الله عز و جل ان المؤمن عندى بمثلة كل خير يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه ومحمد بن المنكدر بشاب يغامر امرأة فقال يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال قال أبو العالیه انى لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقعة أما بعد فلتكن التقوى من بالك على كل حال وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بما فان في النعم حجة وفيها تبعة فأما الحجة بما فالمعصية بما وأما التبعة فيها فقلة للشكر عليها فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من

(١٠٥/١)

ذنب أو قصرت من حق ومرو الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكى قيل له ما يبكيك قال ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذى أبكاني

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه قال عبد الله بن المبارك أخبرني يحيى بن عبد الله قال سمعت أبي هريرة فذكره وقال ابن المبارك حدثنا يزيد بن ابراهيم عن الحسن قال قال أبو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه إلا

في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس عن اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل كيف أنت قال الرجل أحمد اليك الله قال هذا أردت منك قال ابن المبارك وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لعلنا نلتقي في اليوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل وقال مجاهد في قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال لا إله إلا الله وقال ابن عيينة ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله قال وان لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبرا أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون واصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون واصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون فبكي وأبكاهم وقال عبد الله بن قرط الأزدي وكان من الصحابة على المنبر وكان يوم أضحي ورأى على الناس ألوان الثياب يا لها من نعمة ما أشبعها ومن كرامة ما أظهرها ما زال عن قوم شيئا أشد من نعمة لا يستطيعون ردها وانما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ان رجلا بسط له من الدنيا فانتزع ما في يديه

(١٠٦/١)

فجعل يحمد الله ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية قال فجعل يحمد الله ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية قال فجعل يحمد الله ويثني عليه وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية أرايتك أنت على ما تحمد الله قال أحمدته على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه قال وما ذاك قال أرايتك بصرك أرايتك لسانك أرايتك يديك أرايتك رجلك وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم قال الرجل لا قال فبيديك مائة ألف قال لا فبرجليك مائة ألف قال لا قال فذكره نعم الله عليه فقال يونس أرى عندك مئين الالوف وأنت تشكو الحاجة وكان ابو الدرداء يقول الصحة الملك وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه فقد ابى بغلة له فقال ان ردها الله على لأحمدنه بمحامد يرضاها فما لبث أن أتى بسرجهما ولجامهما فركبها فلما استوى عليها وضم اليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال الحمد لله لم يزد عليها فقيل له في ذلك فقال هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن اسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده قال بعث رسول الله بعثا من الانصار وقال ان سلمهم الله وغنمهم فإن الله على في ذلك شكرا قال فلم يلبثوا أن غنموا

وسلموا فقال بعض أصحابه سمعناك تقول ان سلمهم الله وغنمهم فإن الله على ذلك شكرا قال قد فعلت اللهم لك الحمد شكرا ولك المن فضلا

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال محمد بن المنكدر لأبي حازم يا أبا حازم ما أكثر من يلقي فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت اليهم خيرا قط فقال أبو حازم لا تظن أن ذلك من قبلك ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره وقرأ أبو عبد الرحمن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا وقال علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون حدثني من أصدقائه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم

(١٠٧/١)

وقال الحسن ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله الا كان ما أعطى أكثر مما أخذ قال ابن أبي الدنيا وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ثم قال وقال بعض أهل العلم انما تفسير هذا أن الرجل اذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمد عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره فكان الحمد له أفضل

قلت لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة فإن قوله الحمد لله نعمة من نعم الله والنعمة التي حمد الله عليها ايضا نعمة من نعم الله وبعض النعم أجل من بعض فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وان دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله وفعل العبد هو مفعول الله ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض

وقال بعض أهل العلم لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا فإن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه

وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض العلماء أنه قال ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا كما يحمد على ما أعطاه وأين يقع ما أعطاه الله والحساب يأتي عليه إلى ما عافاه الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه

وحدث عن ابن أبي الحواري قال جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم فجعل سفيان يقول أنعم الله علينا في كذا وكذا أنعم الله علينا في كذا فعل بنا كذا وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر

وقال غير سفيان كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال ذلك مكر الله بالعباد المضيعين وقال يونس في تفسيرها ان العبد اذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه أشرف

(١٠٨/١)

منها واذا هو ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجا وقال أبو حازم نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها انى رأيته أعطاهما أقواما فهلكوا وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية واذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره وذكر كاتب الليث عن هقل عن الازاعي أنه وعظهم فقال في موعظته أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحت فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تتطلع على الأفئدة فإنكم في دار الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعمارا وأمد أجساما وأعظم آثارا فقطعوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد فما لبثت الايام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ثم أنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بيانا من عقوبة الله فأصبح كثير منهم في دارهم جائئين واصبح الباقيون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم وعبرة لمن يخشى وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق منه الا حمأة شر وصباة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غير وارسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر ولا تكونوا أشباها لمن خدعه الامل وغره طول الاجل وتبلغ بطول الامانى نسأل الله أن يجعلنا واياكم ممن وعى انذاره وعقل بشره فمهد لنفسه وكان يقال الشكر ترك المعصية وقال ابن المبارك قال سفيان ليس بفقير فمن لم يعد البلاء نعمه والرخاء مصيبه وكان مروان بن الحكم اذا ذكر الاسلام قال بنعمة ربي وصلت اليه لا بما قدمت يدي ولا يارادتي انى كنت خاطئا

وكم من مدخل لو مت فيه ... لكنت فيه نكالا في العشرة
وقيت السوء والمكروه فيه ... وظفرت بنعمة منه كبيرة
وكم من نعمة لله تمسى ... وتصبح في العيان وفي السريرة

(١٠٩/١)

ودعى عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم ففرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكرا لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم قال يزيد بن هرون أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحا عليه السلام كان اذا خرج من الخلاء قال الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى منفته في جسدى وأذهب عنى أذاه فسمى عبدا شكورا وقال ابن أبي الدنيا حدثني العباس بن جعفر عن الحارث بن شبل قال حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي أنه لم يقم عن خلاء قط الا قاله وقال رجل لأبي حازم ما شكر العيين يا أبا حازم قال ان رأيت بهما خيرا أعلنته وان رأيت بهما شرا سترته قال فما شكر الاذنين قال ان سمعت بهما خيرا وعيته وان سمعت بهما شرا دفعته قال فما شكر اليدين قال لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقا لله هو فيهما قال فما شكر البطن قال أن يكون أسفله طعاما وأعلاه علما قال فما شكر الفرج قال قال الله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون قال فما شكر الرجلين قال ان علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله وان مقتته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب قال جعفر فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال فلما رأى ما في وجوهنا قال انى أبشركم بما يسركم انه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان التقوا بواد يقال له بدر كثير الاراك كأني أنظر اليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى ضمرة فقال له جعفر ما بالك جالسا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الاخلاق قال انا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام ان حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما أحدث الله لهم من نعمه فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع

(١١٠/١)

وقال حبيب بن عبيد ما ابتلى الله عبدا ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه وقال عبد الملك بن اسحاق ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره أو بلية لينظر كيف صبره وقال سفيان الثوري لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه اليه فيها وكان رسول الله اذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا له عز وجل ذكره أحمد وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه خرج علينا النبي فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود فقلت يا رسول الله سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها فقال ان جبريل أتاني فبشرني أن الله عز و

جل يقول لك من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكرا ذكره أحمد وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال خرجنا مع النبي من مكة نريد المدينة فلما كنا قريبا من عذرة نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدا فعله ثلاثا وقال انى سألت ربي وشفعت لأمتى فأعطاني ثلث أمتى فخررت ساجدا شكرا لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتى فأعطاني ثلث أمتى فخررت ساجدا لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجدا لربي رواه أبو داود

وذكر محمد بن اسحاق في كتاب الفتوح قال لما جاء المبشر يوم بدر يقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ثلاثة أيمان بالله الذى لا اله الا هو لقد رأيته قتيلا فحلف له فخر رسول الله ساجدا وذكر سعيد بن منصور أن ابى بكر الصديق رضى الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة وذكر أحمد أن عليا رضى الله عنه سجد حين وجد ذا الندية في الخوارج وسجد كعب بن مالك في عهد النبي لما بشر بتوبة الله عليه والقصة في الصحيحين فإن قيل فنعم الله دائما مستمرة على العبد فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة وقد تكون المستدامة أعظم قيل الجواب من وجوه

(١١١/١)

أحدها أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة والانسان موكل بالأدنى الثاني أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة وكان أسهلها على الانسان وأحبها إلى الله السجود شكرا له الثالث أن المتجددة لها وقع في النفوس والقلوب بها أعلق ولهذا يهنى بها ويعزى بفقدائها الرابع أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها وكثيرا ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر والسجود ذل لله وعبودية وخضوع فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرا بدوام تلك النعمة وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة وعادت استدراجا وقد تقدم أمر النجاشي فان الله اذا احداث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعا وقال العلاء بن المغيرة بشرت الحسن بموت الحجاج وهو محتف فخر الله ساجدا فصل ومن دقيق نعم الله على العبد التى لا يكاد يفطن لها انه يغلق عليه بابه فيرسل الله اليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئا من القوت ليعرفه نعمته عليه وقال سلام بن أبي مطيع دخلت على مريض أعوده فاذا هو يئن فقلت له أذكر المطروحين على الطريق أذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم قال ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه أذكرى المطروحين في الطريق اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه

وقال عبد الله بن أبي نوح قال لى رجل على بعض السواحل كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب قلت ما أحصى ذلك كثرة قال فهل قصدت اليه في أمر كربك فخذلك قلت لا والله ولكنه أحسن إلى وأعاننى قال فهل سألته شيئا فلم يعطكه قلت وهل منعى شيئا سألته ما سألته شيئا قط الا أعطاني ولا استعنت به الا أعاننى قال أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك قلت ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء قال فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديما وحديثا اليك والله

(١١٢/١)

لشكره أيسر من مكافأة عباده انه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكرا وقال سفيان الثوري ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه وقال ابن أبي الحواري قلت لأبي معاوية ما أعظم النعمة علينا في التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا اياه قال يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه والله أكرم من أن ينعم بنعمة الا أتمها ويستعمل بعمل الا قبله وقال ابن ابى الحواري قالت لى امرأة أنا في بيتي قد شغل قلبى قلت وما هو قالت أريد أن أعرف نعم الله على في طرفة عين أو أعرف تقصيرى عن شكر النعمة على في طرفة عين قلت تريدن مالا تمتدى اليه عقولنا

وقال ابن زيد انه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز و جل فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم قال وفي بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى أنه قال سرورا عبدى المؤمن فكان لا يأتيه شئ الا قال الحمد لله ما شاء الله قال روعوا عبدى المؤمن فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه الا قال الحمد لله الحمد لله فقال الله تبارك وتعالى ان عبدى يحمدنى حين روعته كما يحمدنى حين سررته أدخلوا عبدى دار عزى كما يحمدنى على كل حالته

وقال وهب عبد الله عابد خمسين عاما فأوحى الله اليه انى قد غفرت لك قال أى رب وما تغفر لى ولم أذنب فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا اليه فقال ما لقيت من ضربان العرق فقال الملك ان ربك يقول ان عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق وذكر ابن أبي الدنيا ان داود قال يارب أخبرنى ما أدنى نعمك على فأوحى الله اليه يا داود تنفس فتتنفس قال هذا أدنى نعمى عليك فصل وبهذا يتبين معنى الحديث الذى رواه أبو داود من حديث زيد ابن ثابت وابن عباس ان الله لو عذب اهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رجعهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم والحديث الذى في الصحيح لن ينجى أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا

أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه
وأما قول بعض الفقهاء ان من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر يمينه أن يقول الحمد لله
حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله ولا عن أحد من الصحابة وإنما هو
اسرائيلي عن آدم وأصح منه الحمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا ولا يمكن حمد العبد
وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله فضلا عن موافاته جميع نعمه ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئا
للمزيد ولكن يحمل على وجه يصح وهو أن الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمدا يكون موافيا
لنعمه ومكافئا لمزيده وان لم يقدر العبد أن يأتي به كما اذا قال الحمد لله ملء السموات وملء الأرض
وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر وعدد أنفاس
الخلائق وعدد ما خلق الله وما هو خالق فهذا اخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من
الحمد

فصل وقال أبو المليح قال موسى يا رب ما أفضل الشكر قال أن تشكرني

على كل حال وقال بكر بن عبد الله قلت لأخ لي أوصني فقال ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد
أن لا يفتر من الحمد والاستغفار فان ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة الا بالحمد والشكر ولا
يصلح الذنب الا بالتوبة والاستغفار فأوسعني علما ما شئت
وقال عبد العزيز بن أبي داود رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق على منها فقال لي
أتدري ماذا لله على في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف
ذكرتي فهانت على قرحته
وروى الجريري عن أبي الورد عن الحلاج عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله أتى على رجل
وهو يقول اللهم اني أسألك تمام النعمة فقال ابن آدم هل تدري ما تمام النعمة قال يا رسول الله دعوت
دعوة أرجو بها الخير فقال ان تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة
وقال سهم بن سلمة حدثت أن الرجل اذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يسأل عن
نعيم ذلك الطعام

فصل

ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية وما يسأل شيئا أحب اليه من

العافية كما في المسند عن ابي صالح عن ابي هريرة رضى الله عنه قال قام أبو بكر رضى الله عنه على المنبر ثم قال سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبدا بعد اليقين خيرا من العافية وفي حديث آخر إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئا أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله عز و جل وقال لعنه العباس يا عم أكثر من الدعاء بالعافية وفي الترمذى قلت يا رسول الله علمنى شيئا أسأله الله قال سل الله العافية فمكثت أياما ثم جئت فقلت علمنى شيئا أسأله الله فقال لى يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة وقال في دعائه يوم الطائف ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى فلاذ بعافيته كما استعاذ بها في قوله أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك

وفي حديث آخر سلوا الله العفو والعافية والمعافة وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية في الحال والمعافة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها وكان عبد الأعلى التيمى يقول أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وان اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافي الذى لا يأمن البلاء وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء انه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له في بقية عمره من البلاء ما يجهد في الدنيا ويفضحه في الآخرة ثم يقول بعد ذلك الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملا لا نجزيها وإن نعمر فيها لا نيلها ومر رسول الله برجل يسأل الله الصبر فقال لقد سألت البلاء فاسأل العافية وفي صحيح مسلم أنه عاد رجلا قد هفت أى هزل فصار مثل الفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشئ أو تسأله اياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا فقال رسول الله سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا

(١١٥/١)

عذاب النار فدعا الله له فشفاه وفي الترمذى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك وأحفظ وصيتك وقال شيبان كان الحسن اذا جلس مجلسا يقول لك الحمد بالاسلام ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال بسطت رزقنا وأظهرت أمننا وأحسنست معافاتنا ومن كل ما سألناك أعطيتنا فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا أعطيت خيرا كثيرا وصرفت شرا كثيرا فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد وكان بعض السلف يقول اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى فانها منك وحدك لا شريك لك فلك الحمد بذلك علينا ولك المن ولك

الفضل ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا اله الا أنت
وقال مجاهد اذا كان ابن عمر في سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن
بلائه علينا ثلاثا اللهم صاحبنا فأفضل علينا عائد بالله من النار ولا حول ولا قوة الا بالله ثلاثا
وذكر الامام أحمد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام يا موسى كن يقظان مرتادا
لنفسك أخذانا وكل خدن لا يواتيك على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو لك وهو يقسى قلبك وأكثر من
ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد وقال الحسن خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة
من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم
والمبتلى فقال آدم يا رب ألا سويت بين ولدي قال يا آدم اني أريد أن أشكر
وفي السنن عنه من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا
شريك لك فلك الحمد ولك الشكر الا أدى شكر ذلك اليوم ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر
ليلته ويذكر عن النبي من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم
مehتدون ويذكر عنه أنه أوصى رجلا بثلاث فقال أكثر من ذكر الموت يشغلك

(١١٦/١)

عما سواه وعليك بالدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة
ويذكر عنه أنه كان إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى وكل بلاء حسن أبلانى الحمد
لله الرازق ذى القوة المتين اللهم لا تترع منا صالحا أعطيتنا ولا صالحا رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين
ويذكر عنه أنه إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا وكان عروة بن الزبير
إذا أتى بطعام لم يزل مخمرا حتى يقول هذه الكلمات الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا الله
أكبر اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها لا خير إلا خيرك
ولا إله غيرك اله الصالحين ورب العالمين الحمد لله لا اله الا الله ما شاء الله لا قوة الا بالله اللهم بارك لنا
فيما رزقتنا وقنا عذاب النار

وقال وهب بن منبه رءوس النعم ثلاثة فأولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمه الا بها والثانية نعمة العافية
التى لا تطيب الحياة الا بها والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش الا به
وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا ثم قال تعدد النعم من
الشكر ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول الحمد لله على نعمه فقال رجل
كان مع وهب أى شئ بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها فقال له المبتلى ارم ببصرك إلى أهل المدينة
فانظر إلى كثرة أهلها أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى

ويذكر عن النبي أنه قال اذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها وذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه أن يختصر أتى بدانيال فأمر به فحبس في جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائما يصلى والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له فقال له ما قلت حين دفع عليك قال قلت الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره والحمد لله الذى لا يخيب من رجاء والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره والحمد لله الذى هو ثقتنا

(١١٧/١)

حين تنقطع عنا الحيل والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا والحمد لله الذى يجزى بالاحسان احسانا والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجا
ويذكر عنه انه كان اذا نظر في المرأة قال الحمد لله الذى أحسن خلقى وخلقى وزان منى ما شان من
غيرى

وقال ابن سيرين كان ابن عمر يكثر النظر في المرأة وتكون معه في الاسفار فقلت له ولم قال أنظر فما
كان في وجهي زين فهو في وجه غيري شين أحمد الله عليه وسئل أبو بكر بن أبي مریم ما تمام النعمة قال
أن تضع رجلا على الصراط ورجلا في الجنة وقال بكر بن عبد الله يا ابن آدم ان أردت أن تعرف قدر
ما أنعم الله عليك فغمض عينيك

وقال مقاتل في قوله واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال أما الظاهرة فالاسلام وأما الباطنة فستره
عليكم بالمعاصي

وقال ابن شاذب قال عبد الله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه ان الله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم
بأشد من النار لعذبهم

وقال أبو سليمان الداراني جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالا الكرم والسخاء والحلم والرفقة
والرحمة والشكر والبر والصبر وقال أبو هريرة رضى الله عنه من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذى
عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا فقد أدى شكر تلك النعمة وقال عبد الله
بن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول الشكر يأخذ مجذم الحمد وأصله وفرعه قال ينظر في نعم الله
في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك ليس من هذا شئ الا فيه نعمه من الله حق على العبد أن
يعمل في النعمة التي هي في بدنه لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم
عليه به من الرزق بطاعته فمن عمل بهذا كان قد أخذ مجذم الشكر وأصله وفرعه
وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله الا أعطاه الله نفعها في
الدنيا ورفع له بها درجة في الاخرى وما أنعم الله على عبد نعمة في

الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها الا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه ان شاء أو يتجاوز عنه

وقال الحسن من لا يرى لله عليه نعمة الا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه
وقال الحسن يوما لبكر المزني هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك فحمد الله وأثنى عليه وصلى على
النبي ثم قال والله ما أدرى أى النعمتين أفضل على وعليكم أنعمة المسلك أم نعمة المخرج اذا أخرجه منا
قال الحسن انما لمن نعمة الطعام

وقالت عائشة رضى الله عنها ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الاذى الا وجب
عليه الشكر قال الحسن يالها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرعا لقد كان ملك من ملوك هذه
القرية يرى الغلام من غلمانته يأتى الحب فيكتال منه ثم يخرج قائما فيقول يا ليتنى مثلك ما يشرب حتى
يقطع عنه العطش فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات يا لها من نعمة

وكتب بعض العلماء إلى أخ له أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله مالا نحصىه مع كثرة ما نعصيه فما
يدرى أيهما نشكر أجميل ما يسر أم قبيح ما ستر وقيل للحسن ها هنا رجل لا يجالس الناس فجاء اليه
فسأله عن ذلك فقال انى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من
الذنب والشكر لله على النعمة فقال له الحسن أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه
وقال ابن المبارك سمعت عليا بن صالح يقول في قوله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم قال أى من طاعنى
والتحقيق أن الزيادة من النعم وطاعته من أجل نعمه وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم
بالليل ويرفع صوته أحيانا أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد وأنا
الفقير الذى أغنيته فلك الحمد وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد وأنا العزب الذى زوجته فلك
الحمد وأنا الساعب الذى أشبعته فلك الحمد وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد وأنا المسافر الذى
صاحبه فلك الحمد وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد وأنا
المريض الذى شفيته فلك الحمد وأنا السائل

الذى أعطيته فلك الحمد وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا
وكان بعض الخطباء يقول في خطبته اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه ثم أدار منك الحديقة
فجعلها بجفون مطبقة وبأشفار معلقة ونقلك من طبقة إلى طبقة وحن عليك قلب الوالدين برقة ومقة

فنعمة عليك مورقة وأياديه بك محدقة

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها سبحانه من لم يجعل لحد معرفة نعمة الا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد ادراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك فجعل معرفة نعمة بالتقصير عن معرفتها شكرا كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله ايمانا علما منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك

وقال عبد الله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله يقول خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرا شاكرا من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاتته منه لم يكتبه الله صابرا شاكرا وبهذا الإسناد عن عبد الله ابن عمرو موقوفا عليه أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتا في الجنة من كان عصمة أمره لا اله الا الله وإذا أصابته مصيبه قال انا لله وانا اليه راجعون وإذا أعطى شيئا قال الحمد لله وإذا أذنب قال استغفر الله

وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجیح عن مجاهد في قوله تعالى انه كان عبدا شكورا قال لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه ولم يشرب شرابا قط الا حمد الله عليه ولم يبطش بشيء قط الا حمد الله عليه فأثنى الله عليه انه كان عبدا شكورا وقال محمد بن كعب كان نوح إذا أكل قال الحمد لله وإذا شرب قال الحمد لله وإذا لبس قال الحمد لله وإذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته

(١٢٠/١)

فصل والله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما أحدهما

أمره ونهيهِ اللذين هما محض حقه عليه والثاني شكر نعمته التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمته وبالقيام بأمره فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج الى عفو الله ومغفرته فإن لم يداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله وأكثر الديانين لا يعاؤون منها الا بما شاركهم فيه عموم الناس وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحه لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها وفضلا عن أن يفعلوها وأقل الناس ديناً وأمقتهم الى الله من ترك هذه الواجبات وان زهد في الدنيا جميعها وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه

ويعمره الله ويغضب لحرماته ويبدل عرضه في نصرة دينه وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند الله من هؤلاء وقد ذكر أبو عمر وغيره أن الله تعالى أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقريه فقال يا رب ان فيهم فلانا العابد الزاهد قال به فابدأ وأسمعى صوته انه لم يتمعر وجهه في يوم قط

فصل وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ولو

عمل أعمال الثقلين فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله وأدنى نعمه من نعمه تستنفذ عمله فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه

قال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع فقال يا رب ارحمه فإنني قد رحمته فأوحى الله اليه لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ولا يزال مزريا على نفسه ذاما لها وما اقربه من الرحمة اذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان

(١٢١/١)

الباب الحادى والعشرون فى الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين

فتقول كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه ونذكر حقيقة الشكر وماهيته

قال فى الصحاح الشكر الشئ على احسن بما أولاه من المعروف يقال شكرته وشكرت له واللام أفصح وقوله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا يحتمل أن يكون مصدرا كالتعود وأن يكون جمعا كالبرود والكفور والشكران خلاف الكفران وتشكرت له مثل شكرت له والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها واشتكر الضرع امتلاؤا لبنا تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكرا فهي شكرة وشكرت الشجرة تشكر شكرا إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور كيف نجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء ويقال أيضا دابة شكور اذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا الا بمجموعها أحدها اعترافه بنعمة الله عليه والثانى الشئاء عليه بها والثالث الاستعانة بها على مرضاته

وأما قول الناس فى الشكر فقالت طائفة هو الاعتراف بنعمه المنعم على وجه الخضوع وقيل الشكر هو

الثناء على المحسن بذكر احسانه اليه فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر احسانه اليه وقيل شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة وقيل شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا وقيل الشكر معرفه العجز عن الشكر ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك أن ترى شركك بتوفيقه وذلك التوفيق من أجل النعم عليك تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر الا ترى نفسك للنعمه أهلا وقيل الشكر استفراغ الطاقه في الطاعه وقيل الشاكر الذى يشكر على الموجود

(١٢٢/١)

والشكور الذى يشكر على المفقود وقيل الشاكر الذى يشكر على الرشد والشكور الذى يشكر على الرد وقيل الشاكر الذى يشكر على النفع والشكور الذى يشكر على المنع وقيل الشاكر الذى يشكر على العطاء والشكور الذى يشكر على البلاء

وقال الجنيد كنت بين يدي السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبيننا جماعة يتكلمون في الشكر فقال لى يا غلام ما الشكر فقلت ألا تعصى الله بنعمه فقال يوشك أن يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى وقال الشبلى الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم وقيل الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقال أبو عثمان شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني

وحبس السلطان رجلا فأرسل اليه صاحبه أشكر الله فضرب فأرسل اليه أشكر الله فجاء بمحبوس مجوسى مبطون فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في الرجل المذكور فكان المجوسى يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل أن يقف على راسه حتى يفرغ فكتب اليه صاحبه أشكر الله فقال له الى متى تقول أشكر الله وأى بلاء فوق هذا فقال ولو وضع الزنار الذى في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذى في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع فاشكر الله ودخل رجل على سهل ابن عبد الله فقال اللص دخل دارى وأخذ متاعى فقال أشكر الله فلو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وافسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع

وقيل الشكر التلذذ بشئائه على ما لم يستوجبه من عطائه وقيل اذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر وقيل اربعة لا ثمرة لهم مشاورة الاصم ووضع النعمة عند من لا يشكرها والبذر في السباح والسراج في الشمس

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فالقلب للمعرفة والمحبة واللسان للثناء والحمد والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه وقال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا
والشكر أخص بالافعال والحمد أخص بالاقوال وسبب الحمد أعم من سبب

(١٢٣/١)

الشكر ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد فما يحمد الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه فانه
يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه ويشكر على نعمه وما يحمد به أخص مما يشكر به فانه يشكر
بالقلب واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان

فصل اذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن

وجوده الا به وانما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الاغلب عليه والاظهر منه والا فحقيقة
الشكر انما يلتئم من الصبر والارادة والفعل فان الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل
ذلك فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر واذا كان الصبر مأمورا به فأداؤه هو الشكر
فان قيل فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر وانهما اسمان لمسمى واحد وهذا محال عقلا ولغة وعرفا وقد
فرق الله سبحانه بينهما

قيل بل هما معنيان متغايران وانما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته الى الآخر ومتى
تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرا واذا تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبرا أما الاول فظاهر
وأما الثاني اذا تجرد عن الشكر كان كافورا ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط
فان قيل بل ها هنا قسم آخر وهو أن لا يكون كفورا ولا شكورا بل صابرا على مضض وكراهة شديدة
فلم يأت بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر

قيل كلامنا في الصبر المأمور به الذى هو طاعة لا فى الصبر الذى هو تجلد كصبر البهائم وصبر الطاعة لا
يأتى به إلا شاكر ولكن اندرج شكره فى صبره فكان الحكم للصبر كما اندرج صبر الشكور فى شكره
فكان الحكم للشكر فمقامات الايمان لا تعدم بالتثقل فيها بل تندرج وينطوى الادنى فى الاعلى كما
يندرج الايمان فى الاحسان وكما يندرج الصبر فى مقامات الرضا لا أن الصبر يزول ويندرج الرضا فى
التفويض ويندرج الخوف والرجاء فى الحب لا أنهما يزولان فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر
سواء كان محبوبا أو مكروها فالفقير مثلا يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة ويتعلق به
الشكر لما فيه من النعمة فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به

(١٢٤/١)

واستراح واطمأن اليه عده نعمة يشكر عليها ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها وعكسه الغنى

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعد ذلك كله ابتلاء فقال ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه فيقول ربي أهانن وقال إنا جعلنا ما على الارض زينا لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وقال الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال وهو الذى خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فاخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر أجل الخلق وخلق ما على الارض للابتلاء والاختبار

وهذا الابتلاء انما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة وتأتى الاسباب أعظم الابتلائين والصبر على طاعة الله أشق الصبرين كما قال الصحابة رضى الله عنهم ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها فالرب تعالى يبتلى بنعمه وينعم بابتلائه غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغنى عنهما طرفة عين والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل وعن الطعام والشراب أيهما أفضل وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل فالمأمور لا يؤدى الا بصبر وشكر والمخطور لا يترك الا بصبر وشكر وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره فى صبره كما يندرج صبر الشاكر فى شكره ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما فى الله فهو فى كل وقت فى مجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمور به ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما غنيا كان أو فقيرا معافى أو مبتلى وهذه هى مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل وللناس فيها ثلاثة أقوال وهى التى حكاهما أبو الفرج ابن الجوزى وغيره فى عموم الصبر والشكر أيهما

(١٢٥/١)

أفضل وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها والتحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله تعالى فان فرض استوائهما فى التقوى استويا فى الفضل فان الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء وانما فضل بالتقوى كما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقد قال لا فضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى الا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب والتقوى مبنيه على أصلين الصبر والشكر وكل من الغنى والفقير لا بد له

منهما فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل فان قيل فاذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل

قيل أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة فان الغنى قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغنى في شكره فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ولا بالعكس لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما بل الواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل فان التفضيل تابع لهذين الأمرين كما قال تعالى في الاثر الالهى ما تقرب الى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل

فان قيل فقد ثبت عن النبى أنه قال يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام قيل هذا لا يدل على فضلهم على الاغنياء فى الدرجة وعلو الميزة وان سبقوهم بالدخول فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه فاذا دخل كانت درجته أعلى وميزته أرفع كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الاحمال بعده

فان قيل فقد قال النبى للفقراء لما شكوا اليه زيادة عمل الاغنياء عليهم بالعق والصدقة ألا أدلكم على شئ اذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم فدلهم على التسييح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة فلما سمع الاغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبى فقال ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء

(١٢٦/١)

وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر قيل هذا حجة للقول الذى نصرناه وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل فإن استويا استويا وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك فساووهم فى صبرهم على الجهاد والأذى فى الله والصبر على المقدور وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها

فان قيل إن النبى عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها وقال بل اشبع يوما وأجوع يوما وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنهما قالت خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من خبز البر ومات ودرعه مرهونه عند يهودى على طعام أخذه لأهله

وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الاعمش عن عبادة بن القعقاع عن ابى زرعه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وقال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن محمد

حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على امرأة من الانصار فرأت فراش النبي عباءة مثنيه فرجعت الى منزلها فبعثت الى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله فقال ما هذا فقلت فلانه الانصاريه دخلت على فرأت فراشك فبعثت الى بهذا فقال رديه فلم أردّه وأعجبنى أن يكون في بيتي حتى قال لي ذلك ثلاث مرات فقال يا عائشة رديه فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضه فرددته ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله الا الافضل هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها في مرضاة الله ولكان شكره بما فوق شكر جميع العالمين

قيل احتج بحال رسول الله كل واحدة من الطائفتين والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه وكان سيد الاغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين فحصل له من الصبر على الفقراء ما لم يحصل لأحد

(١٢٧/١)

سواه ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغنى سواه ومن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك فكان أصبر الخلق في مواطن الصبر وأشكر الخلق في مواطن الشكر وربّه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين قال تعالى ووجدك عائلاً فأغنى وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر وأعال يعيل إذا صار ذا عيال مثل لبن وأثر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة وعال يعول إذا جار ومنه قوله تعالى ذلك أدنى أن لا تعولوا وقيل المعنى ألا تكثر عيالكم والقول هو الأول لوجوه أحدها أنه لا يعرف في اللغة عال يعول إذا كثر عياله وإنما المعروف في ذلك عال يعيل وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا هذا الذى ذكره أهل اللغة قاطبة

الثاني أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذى نقلهم عند خوفهم من فقدّه الى الواحدة والتسرى بما شاءوا من ملك أيماهم ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال يوضحه الوجه الثالث أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة إلى الواحدة أو النوع الذى لا قسمة عليهم في الاستمتاع بمنهون الإماماء فانظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبالغ والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل فما لكثرة العيال مدخلها هنا البتة

يوضحه الوجه الرابع انه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم الى ما شاءوا من كثرة الاماء بلا عدد فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماماء ولا فرق فإنه لم ينقلهم الى اماء الاستخدام بل الى

إمء الاستفراش يوضحه الوجه الخامس أن كثرة العيال ليس أمرا محذورا مكروها للرب تعالى كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء وقد قال النبي تزوجوا الولود الولود فإن مكاثركم بكم الامم فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثركم به الامم يوم القيامة

(١٢٨/١)

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنيا شاكرا بعد أن كان فقيرا صابرا فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضا لحالها

فإن قيل فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الشاكرين وقد قال الامام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمارة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال بينما عائشة في بيتها سمعت صوتا في المدينة فقالت ما هذا فقالوا غير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شئ قال وقد كانت سبعمئة بعير فارتجت المدينة من الصوت فقالت عائشة سمعت رسول الله يقول رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال إن استطعت لأدخلنها قائما فجعلها بأحمالها وأفتابها كلها في سبيل الله

قيل قد قال الامام أحمد هذا الحديث كذب منكر قالوا او عمارة يروى أحاديث مناكير وقال أبو حاتم الرازى عمارة بن زاذان لا يحتج به

قال أبو الفرج وقد روى الجراح بن منهال باسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي قال له يا ابن عوف إنك من الأغنياء وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفا فأقرض ربك يطلق قدميك قال أبو عبد الرحمن النسائي هذا حديث موضوع والجراح متروك الحديث وقال يحيى ليس حديث الجراح بشئ وقال ابن المدينى لا يكتب حديثه وقال ابن حبان كان يكذب وقال الدارقطنى متروك

فإن قيل فما تصنعون بالحديث الذى رواه البيهقى من حديث أحمد بن على بن اسماعيل بن محمد حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أخبرنى خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه عن عطاء بن أبى رباح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله أنه قال يا ابن عوف إنك من الاغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا فأقرض الله يطلق قدميك قال وما الذى أقرض يا رسول الله قال تتبرا مما أمسيت فيه قال أمن كله أجمع يا رسول الله قال نعم فخرج وهو يهتم بذلك فأتاه جبريل فقال مر ابن عوف فليصف الضيف وليطعم المساكين وليبدأ بمن يعول وليعط السائل فإذا فعل ذلك كان تركية ما هو فيه

قيل هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله فان أحد رواة خالد بن

(١٢٩/١)

يزيد بن أبي مالك قال الامام أحمد ليس بشيء وقال ابن معين واه وقال النسائي غير ثقة وقال الدارقطني ضعيف وقال يحيى بن معين لم يرض أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة

فان قيل فما تصنعون بالحديث الذي قاله الامام أحمد حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطروح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال قال رسول الله دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي قلت ما هذا قال بلال فمضيت فاذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراى المسلمين ولم ار فيها أحدا أقل من الاغنياء والنساء قيل لى أما الاغنياء فهم فى الباب يحاسبون ويمحصون وأما النساء فألهن الاحمران الذهب والحريير ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها ثم أتى بأبى بكر فوضع فى كفة وجئ بجميع أمتى فوضعوا فى كفة فرجح أبو بكر ثم أتى بعمر فوضع فى كفة ووضع أمتى فى كفة فرجح عمر وعرضت على أمتى رجلا رجلا فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن ابن عوف ثم جاء بعد الاياس فقلت عبد الرحمن فقال بأبى وأمى يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إنى لا أصل إليك الا بعد المشيبات قلت وما ذاك قال من كثرة مالى أحاسب فأحص

قيل هذا حديث لا يحتج باسناده وقد أدخله أبو الفرج هو والذي قبله فى كتاب الموضوعات وقال أما عبيد بن زحر فقال يحيى ليس بشئ وعلى بن يزيد متروك وقال ابن حبان عبيد الله يروى الموضوعات عن الاثبات واذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات واذا اجتمع فى اسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ابن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر الا مما عملته أيديهم

قال أبو الفرج وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين ويرون ان المال مانع من السبق الى الخير ويقولون اذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفا لأجل ماله كفى ذلك فى ذم المال والحديث لا يصح وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق لان جمع المال مباح وانما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع

(١٣٠/١)

الحق الواجب فيه وعبد الرحمن مته عن الحاليين وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب وخلف الزبير وغيره ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول ١ هـ

قلت وقد بالغ فى رد هذا الحديث وتجاوز الحد فى إدخاله فى الأحاديث الموضوعة المختلفة على رسول الله وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها ودخول الجنة حبوا ورأى ذلك مناقضا لسبقه ومترلته التى أعدها الله له فى الجنة وهذا وهم منه رحمه الله

وهب أنه وجد السبيل الى الطعن في هذين الخبرين أفيجد سبيلا الى القدح في حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام قال الترمذى حديث حسن صحيح وفي حديث ابن عمر الذى رواه مسلم في صحيحه عن النبى إن فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا

وفي مسند الامام أحمد عنه عن النبى هل تدرون أول من يدخل الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء

وفي جامع الترمذى من حديث جابر رضى الله عنه عن النبى أنه قال يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الاغنياء بأربعين خريفا فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة الى الجنة لأغنيائهم وهم في السبق متفاوتون فمتهم من يسبق خمسمائة عام ومنهم من يسبق بأربعين عاما ولا يقدر ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم الى الدخول وان تأخروا بعدهم للحساب فان الامام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئا من أمور المسلمين الى الجنة فاذا دخل الامام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير بل يكون أقرب الناس من الله منزلة كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبى قال المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين

(١/٣١)

الرحمن وكلنا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا وفي الترمذى من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى أن أحب الناس الى الله يوم القيامة واقرهم منه مجلسا امام عادل وأبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر

فالامام العادل والغنى قد يتأخر دخول كل منهم للحساب ويكون بعد الدخول ارفع منزلة من الفقير السابق ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه ثم يلحق برسول الله وأصحابه غضاظة عليه ولا نقص من مرتبته ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودا له بالجنة وأما حديث دخوله الجنة زحفا فالامر كما قال فيه الامام أحمد رحمه الله انه كذب منكر وكما قال النسائى انه موضوع ومقامات عبد الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضى دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل ولا يدعه يدخلها زحفا فصل والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم فخلق الغنى والفقر ليتلى بهما عباده أيهم أحسن عملا وجعلهما سببا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون

قال ابن عباس رضى الله عنهما بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام وكلها

بلاء

وقال ابن يزيد نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون
وقال الكلبي بالشر بالفقر والبلاء والخير بالمال والولد فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيئا لابتلاء
والامتحان وقال تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمته ونعمته فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه
فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا فأخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمة له وبسط الرزق
عليه كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه وان كليهما ابتلاء منه وامتحان ثم أنكر سبحانه على من
زعم أن بسط الرزق وتوسعته اكرام من الله لعبده وان تضييقه عليه اهانة منه له فقال كلا أى ليس
الامر كما يقول الانسان بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلاتى

(١٣٢/١)

واذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحتها ظاهرا للمتأمل وقال تعالى وهو الذى
جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم وقال تعالى انا جعلنا ما
على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا فأخبر سبحانه أنه زين الارض بما عليها من المال وغيره
للابتلاء والامتحان كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك وخلق السموات والارض لهذا الابتلاء أيضا
فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم
وأجل أهله وأسباب معاشهم التى جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب
والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه
أيهم أطوع له وارضى فهو الاحسن عملا

وهذا هو الحق الذى خلق به وله السموات والارض وما بينهما وغايته الثواب والعقاب وفواته وتعطيله
هو العيب الذى نزه نفسه عنه وأخبر أنه يتعالى عنه وأن ملكه الحق وتفرد به بالالهية وحده وبربوية كل
شئ ينفى هذا الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم ألينا لا
ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم فتره سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها
عن الشريك والولد والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم واللغوب والحاجة واكثراته
بحفظ السموات والارض وتقديم الشفعاء بين يديه بدون اذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يخرجون عن
علمه جزئيات العالم أو شيئا منها فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه
فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثا وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم اليه فيثيب محسنهم
ياحسانه ومسيئهم باسأته ويعرف المبطلون منهم انهم كانوا كاذبين ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا
اولى بالصدق والحق منهم فمن أنكر ذلك فقد انكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود

والكفر به سبحانه كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره أكفرت بالذى خلقك من
تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا فأخبر أن انكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه وقال

(١٣٣/١)

تعالى وان تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا إنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا برهم وذلك أن
انكار المعادى يتضمن انكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته والهيته كما أن تكذيب
رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك ايضا فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى
أن يكون رب العالمين

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم يزل المال تجرد الاستمتاع
به كما فى المسند عنه قال يقول الله تعالى انا نزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد
من مال لا يبتغى اليه ثانيا ولو كان له ثان لا يبتغى له ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب فأخبر سبحانه
انه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة واقامة حق عباده بالزكاة لا للاستمتاع والتلذذ كما
تأكل الانعام فاذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فان الغرض والحكمة التى أنزل لها
كان التراب أولى به فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الايمان والعلم والحكمة فانه خلق
لان يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والايمان به ومحبه وذكره وانزل عليه من المال ما يستعين به على
ذلك فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له واملأه بمحبة المال
الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه ومع ذلك فلم يمتلىء بل
ازداد فقرا وحرصا الى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه فرجع الى مادته الترابية التى خلق منها هو
وماله ولم تتكامل مادته بامتلاء جوفه من العلم والايمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه
ومعاده فالمال ان لم ينفع صاحبه ضره ولا بد وكذلك العلم والملك والقدرة كل ذلك ان لم ينفعه ضره
فان هذه الامور وسائل لمقاصد يتوسل بها اليها فى الخير والشر فان عطلت عن التوسل بها الى المقاصد
والغايات المحمودة توسل بها الى أضدادها
فأربح الناس من جعلها وسائل الى الله والدار الآخرة وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده وأخسر الناس
من توسل بها الى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخرس الدنيا والآخرة فهذا لم يجعل الوسائل
مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسرا

(١٣٤/١)

لكنه جعلها وسائل الى ضد ما جعلت له فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة الى أعظم الآلام أدواها
فالأقسام أربعة لا خامس لها أحدها معطل الاسباب معرض عنها الثاني مكب عليها واقف مع جمعها
وتحصيلها الثالث متوصل بها الى ما يضره ولا ينفعه في معاشه ومعاده فهؤلاء الثلاثة في الخسران الرابع
متوصل بها الى ما ينفعه في معاشه ومعاده وهو الرابع قال تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف
اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها
وباطل ما كانوا يعملون

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كان له ارادة في الدنيا وزينتها
فله هذا الوعيد ثم اختلفوا في معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن
بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب قالوا والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس

وقال قتادة من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضى الى الآخرة
وليس له حسنة يجازى بها وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة قال هؤلاء فالآية
في الكفار بدليل قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا
يعملون قالوا المؤمن من يريد الدنيا والآخرة فأما من كانت ارادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن
وقال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية أبي صالح عنه نزلت في أهل القبلة قال مجاهد هم أهل الرياء
وقال الضحاك من عمل صالحا من أهل الايمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا واختار
الفراء هذا القول وقال من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس وهذا القول
ارجح ومعنى الآية على هذا من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهذا لا يكون مؤمنا البتة فإن
العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فيما يحملهما على أن يعمل أعمال البر لله فيريدان بأعمال
البر وجه الله وان عملا بمعصيته

(١٣٥/١)

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وانما اراد به الدنيا وزينتها فهذا لا يدخل في دائرة أهل الايمان وهذا هو
الذى فهمه معاوية من الآية واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذى رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة
الذين هم اول من تسعر بهم النار يوم القيامة القارئ الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ والمتصدق الذى
أنفق أمواله ليقال فلان جواد والغازى الذى قتل في الجهاد ليقال هو جري
وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون فشرار الخلق من تشبه بهم وليس
منهم فمن تشبه بأهل الصدق والاخلاص وهو مرء كمن تشبه بالانبياء وهو كاذب
وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن ادريس قال أخبرني عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن

عبد الوارث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله اذا كان يوم القيامة صارت أمتى ثلاث فرق فرقة يعبدون الله عز و جل للدنيا وفرقة يعبدون رياء وسمعة وفرقة يعبدونه لوجهه ولداده فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا فيقول انى لم أقبل من ذلك شيئا اذهبوا بهم الى النار ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة فيقول انى لم أقبل من ذلك شيئا اذهبوا بهم الى النار ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداده بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك وجهك ودارك فيقول صدقتم اذهبوا بهم الى الجنة هذا حديث غنى عن الاسناد والقرآن والسنة شاهدان بصدقه ويدل على صحة هذا القول فى الآية قوله تعالى نوف اليهم أعمالهم فيها وذلك على أنها فى قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله وانما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس وأفضوا الى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة الا كما يقع منه كبائر الاعمال وقوعا عارضا يتوب منه ويراجع التوحيد وقال ابن الانبارى فعلى هذا القول المعنى فى قوم من أهل الاسلام يعملون العمل

(١٣٦/١)

الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين فى الآخرة وما ينقلبون اليه فهؤلاء يجعل لهم جزاء حسناتهم فى الدنيا فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار اذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً قالوا فإن قيل الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من رآى بعمله ولم يلتزم به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا فان الله يبطل إيمانه عند الموافقة فلا يوفى ربه بالايان قالوا ويدل عليه قوله وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وهذا يتناول أصل الايمان وفروعه وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضى الخلود الابدى فى النار وانما تقتضى أن الذى يستحقونه فى الآخرة النار وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين وهذا هو جواب ابن الانبارى وغيره والآية بحمد الله لا اشكال فيها والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار وأخبر بحبوط عمله وبطلانه فاذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه فان كان معه ايمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الايمان فى العمل الذى حبط وبطل وأنجاه ايمانه من الخلود فى النار وان دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة والايمان ايمانان ايمان يمنع من دخول

النار وهو الايمان الباعث على أن تكون الاعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه وايمان يمنع الخلود في النار وان كان مع المرائى شئ منه والا كان من أهل الخلود فالاية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق وذلك قوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ومنه قوله من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا

فهذه ثلاث مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضا ويصدق بعضها بعضا وتجتمع

(١٣٧/١)

على معنى واحد وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له
بقي أن يقال فما حكم من يريد الدنيا والآخرة فانه داخل تحت حكم الارادتين فبأيهما يلحق قيل من ها هنا نشأ الاشكال وظن من ظن من المفسرين أن الاية في حق الكافر فانه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة وهذا غير لازم طردا ولا عكسا فان بعض الكفار قد يريد الآخرة وبعض المسلمين قد لا يكون مراده الا الدنيا والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة والشقاوة بإرادة الدنيا فاذا تجردت الارادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما وان اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والايمان والشرك في العبد
وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة وهذا خطاب للذين شهدوا معه الواقعة ولم يكن فيهم منافق ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الاية والذين أريدوا في هذه الاية هم الذين أدخلوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله بحفظه وهم من خيار المسلمين ولكن هذه ارادة عارضة حملتهم على ترك المركز والاقبال على كسب الغنائم بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها فهذه الارادة لون و ارادة هؤلاء لون

وها هنا أمر يجب التنبيه له وهو أنه لا يمكن ارادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الايمان بالله ورسوله ولقائه أبدا فان الايمان بالله والدار الآخرة يستلزم ارادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله فحيث كان مراده بما الدنيا فهذا لا يجامع الايمان أبدا وان جامع الاقرار والعلم فالايان وراء ذلك والاقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق بإرادة الدنيا وعاجلها

بالاعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم ولكن الايمان الذى هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله
الله والدار الآخرة والله المستعان

(١٣٨/١)

فصل

والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر والصدق والكذب والاخلاص
والشرك قال تعالى ليلوكم فيما آتاكم وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا
يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال تعالى انما أموالكم
وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فجعل الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور وجعل الآخرة دار جزاء
وثواب وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حسن المآب فأخبر سبحانه أن هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أمانى
طلابها ومؤثرها على الآخرة وهو سبعة أشياء النساء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة
والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على
اختلاف أجناسها وأنواعها والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم
لأعدائهم فى طلبهم وهربهم والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك
من مصالحهم والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك
ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ثم شوق عباده الى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من
هذا المتاع وأبقى فقال قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين أتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال الذين يقولون ربنا اننا آمننا
فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار فأخبر
سبحانه أن ما أعد لأولئائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان ثواب يتمتعون به
وأكبر

(١٣٩/١)

منه وهو رضوانه عليهم قال تعالى اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدا لأولى البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الابدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما وأنهما مشغلة للنفس مضیعة للوقت يقطع بها الجاهلون فيذهب ضائعا في غير شيء ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحسانا ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الآجل الدائم الذى هو خير وأبقى

قال الامام حدثنا وكيع حدثنا المسعودى عن عمرو بن مرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي قال مالى وللدنیا انما متلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها

وفى جامع الترمذى من حديث سهل بن سعد قال قال رسول الله لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء قال الترمذى حديث صحيح وفى صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال رسول الله ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فليتنظر بم يرجع وأشار بالسبابة

وفى الترمذى من حديثه قال كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله على السخلة الميتة فقال رسول الله أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا ومن هوأها ألقوها يا رسول الله قال فالدنیا أهون على الله من هذه على أهلها وفى الترمذى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالما أو متعلما والحديثان حسنان قال الامام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا اسماعيل بن عياش بن

(١٤٠/١)

عبد الله بن دينار النهراى قال قال عيسى عليه السلام للحواريين بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وأن عباد الله ليسوا بالمتنعين بحق أقول لكم إن شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة انه لو يستطيع جعل الناس كلهم فى عمله مثله

وقال أحمد حدثنا يحيى بن إسحق قال أخبرنى سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال قال عيسى بن مريم عليه السلام يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر دارا قالوا يا روح الله ومن يقدر على ذلك قال إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا وفى كتاب الزهد لأحمد أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول بحق أقول لكم ان أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوما على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد

أن يرث الفردوس

وفي المسند عنه إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قرحه وملحه فليتنظر إلى ماذا يصير فصل
ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضاً بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه وهذا حال كل من
طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة فالمذمومة
مفاخرة أهل الدنيا بها والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة فهذه من جنس المنافسة المأمور بها وهي أن
الرجل ينافس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمي أنفه له يقال نفست عليه
الشيء أنفسته نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه

(١٤١/١)

دونك والتنافس تفاعل من ذلك كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه وحقيقة
المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس فصل ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال
والأولاد فيحب كل واحد أن يكاثر بنى جنسه في ذلك ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالا وولداً
وأن يقال فيه ذلك وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى أهاكم التكاثر
حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون والتكاثر في كل شيء فكل من شغله وألهاه
التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية فمن الناس من يلهيه التكاثر
بالمال ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثراً وتفاخراً وهذا أسوأ حالا عند الله ممن
يكاثر بالمال والجاه فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه يستعمل أسباب الدنيا لها وكاثر
بأسبابها

فصل ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها وأنها بمنزلة غيث أعجب

الكفار نباته والصحيح أن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا
النعث في كل موضع ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب
الزراع وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون فهم أشد
إعجاباً بزينتها وما فيها من المؤمنين

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه وهذا آخر الدنيا ومصيرها ولو ملكها العبد من
أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة
من الله وحسن ثوابه وجزائه كما قال علي بن أبي طالب الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم
عفها ومطلب نوح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه فيها

اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية فمن ذا يذمها وقد آذنت بنبيها ونعت نفسها وأهلها فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها الى السرور تخويفا وتحذيرا وترغيبا فذمها قوم غداة الندامة وحمدها آخرون ذكرهم

(١٤٢/١)

فذكروا ووعظتهم فاتعظوا فيا أيها الدام للدنيا المغتر بتغيرها متى استدتمت اليك بل متى غرتك أبنائك في الشرى أم بمضاجع أمهاتك في البلاء كم رأيت موروثة كم عللت بكفيك عليلا كم مرضت مريضا بيدك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك ثم التفت الى المقابر فقال يا أهل الغربية ويا أهل التربة أما الدور فسكنت وأما الاموال فقسمت وأما الأزواج فنكحت فهذا خبر ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم ثم التفت اليها فقال أما لو أذن لهم لأخبروكم ان خير الزاد التقوى فالدنيا في الحقيقة لا تدم وانما يتوجه الدم الى فعل العبد فيها وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو الى النار ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها صار لها اسم الدم عند الاطلاق والا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الايمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة انما كان بما زرعه فيها وكفى بما مدحا وفضلا لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الارواح والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والاناة اليه والانس به والفرح بقربه والتدلل له ولذة مناجاته والاقبال عليه والاشتغال به عمن سواه وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره فأخبر به من شاء من عباده ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة وقالوا هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم وحقه أفضل من حقهم قالوا والايمان والطاعة أفضل من جزائه والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل والايمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة فهذا أفضل ما في هذه الدار وهذا أفضل ما في الدار الاخرى

(١٤٣/١)

ولا يصح أن يقال فأى الأمرين أفضل فهذا أفضل الاسباب وهذا أفضل الغايات وبالله التوفيق

فصل ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها في

الآخرة الى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى وأن يؤثره على الفائى المنقطع المشوب بالانكاد والتنغيص ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا

ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات وهى الاعمال والاقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه وقال تعالى انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده الى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء وعم عباده بالدعوة اليها عدلا وخص من شاء بالهداية الى طريقها فضلا وأخبر سبحانه أن الاموال والاولاد لا تقرب الخلق اليه وانما يقربهم اليه تقوى الله ومعاملته فيهم وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره وأخبر أن من ذلك فعل فهو الخاسر حقيقة لا من قل ماله وولده فى الدنيا ونهى نبيه أن يمد عينيه الى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارا وأخبر أن رزقه الذى أعد له فى الآخرة خير وأبقى من هذا الذى متعوا به وأخبر سبحانه انه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم وجعل ما آتاه مانعا له من مد عينيه الى ذلك فهذا العطاء

(١٤٤/١)

فى الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا فلا تمدن عينيك

فصل وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله

لعبدته تمتحن بها صبره وشكره علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما ولا بد لكل مؤمن منهما وكل منهما فى موضعه أفضل فالصبر فى مواطن الصبر أفضل والشكر فى مواضع الشكر أفضل هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر والشكر جزء مسمى الصبر وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معا كما تقدم بيانه فالتمصيل بينهما لا يصح الا اذا جرد أحدهما عن الآخر وذلك فرض ذهنى يقدره الذهن ولا يوجد فى الخارج ولكن يصح على

وجه وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذى هو قدر زائد على مجرد الصبر من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل فتتصرف قواه كلها الى كف النفس وحبسها لله وقد يغلب شكره بالاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه واعتبر هذا بشخصين أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات قليل التشكى للمصيبات وذلك جل عمله وآخر كثير الاعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدى سمح النفس ببذل المعروف وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر فللنفس قوتان قوة الصبر والكف وامساك النفس وقوة البذل وفعل الخير والاقدام على فعل ما تكمل به وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها والناس فى ذلك أربع طبقات فأعلاهم من اجتمعت له القوتان وسفلتهم من عدم القوتين ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله ومنهم من هو بالعكس فى ذلك فإذا فضل الشكر على الصبر فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام واما أن يكون باعتبار تجريد كل من الامرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره وتام ايضاح هذا بمسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر فلنذكر لها بابا يخصها ويكشف عن الصواب فيها

(١٤٥/١)

الباب الثانى والعشرون فى اختلاف الناس فى الغنى الشاكر والفقير

الصابر أيهما أفضل وما هو الصواب فى ذلك
هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الاغنياء والفقراء واحتجت كل طائفة على الاخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين فإن كلا منهما أدلت بحجج لا تدفع والحق لا يعارض بعضه بعضا بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان وقد أكثر الناس فى المسألة من الجانبيين وصنفوا فيها من الطرفين وتكلم الفقهاء والفقراء والاغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم وحكوا عن الامام أحمد فيها روايتان ذكرهما أبو الحسين فى كتاب التمام فقال مسألة الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر فى أصح الروايتين وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة ووجه الاولى واختارها أبو اسحاق بن شاقلا والوالد السعيد قوله تعالى أولئك يجزون الغرفة بما صبروا
قال محمد بن على بن الحسين الغرفة الجنة بما صبروا قال على الفقر فى الدنيا وروى أنس عن النبى قال اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة فقالت عائشة ولم يا رسول الله قال انهم يدخلون الجنة قبل الاغنياء بأربعين خريفا يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة يا عائشة أحبى المساكين وقربهم فان الله يقربك يوم القيامة

قلت لا حجة له في واحدة من الحجتين أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن مصيبته وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه ولو كان المراد بما الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضا كما قال تعالى وسنجزى الشاكرين وسيجزى الله الشاكرين بل قد أخبر أن رضاه في الشكر ورضاه أكبر من جزائه بالجنان وما فيها وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل

(١٤٦/١)

ذلك على أنه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين أحدهما أنه لا يحتاج بإسناده فانه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان والحارث هذا لم يحتاج به أصحاب الصحيح بل قال فيه البخاري منكر الحديث ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه بل حكم بغرابته

الجواب الثاني إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فان المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست فقر المال بل مسكنة القلب وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر فان انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعا واختيارا وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز وقد أتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله

قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا الجريري عن أبي السليل قال كان داود النبي عليه السلام يدخل فينظر أغمص حلقة من بنى إسرائيل فيجلس اليهم ثم يقول مسكين بين ظهرائي مساكين هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة

قال أبو الحسين وروى أبو برزة الاسلمى قال قال رسول الله إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفا حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء في الدنيا قلت هذا الحديث ثابت عن النبي من رواية جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وروى عن أبي سعيد وأنس بن مالك ولا يدل ذلك على علو درجتهم اذا دخلوا الجنة قبل الاغنياء بل انما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه ولا ريب أن ولي الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب وكذلك الغنى الشاكر ولا يلزمهم من تأخر دخولهما نزول درجتهم عن درجة الفقير كما تقدم وانما تمنى الأغنياء أنهم كانوا في الدنيا فقراء فان صحت هذه اللفظة لم

(١٤٧/١)

تدل على انحطاط درجتهم كما يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين فى قمرة لما يرى من شدة الامر فمترلة الفقر والخمول ومترلة السلامة ومترلة الغنى والولاية ومترلة الغنيمة أو العطب قال أبو الحسن وروى ابن عمر أن النبى قام فى أصحابه فقال أى الناس خير فقال بعضهم غنى يعطى حق نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهده قلت لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به ولو صح لم يكن فيه دليل لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهده فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه ولا ريب أن هذا أفضل الاقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره كما قال النبى سبق درهم مائة ألف درهم قالوا يا رسول الله كيف سبق درهم مائة ألف درهم قال رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها رواه النسائي من حديث صفوان بن عيسى حدثنا بن عجلان عن زيد بن أسلم عن ابى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه

وذكر البيهقي من حديث الثوري عن أبى اسحاق عن الحارث عن على رضى الله عنه قال جاء ثلاثة نفر الى النبى فقال أحدهم كانت لى مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق وقال الآخر كانت لى مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير وقال الآخر كان لى عشرة دنانير فتصدقت منها بدینار فقال كلکم فى الاجر سواء كلکم قد تصدق بعشر ماله

وقال أبو سعيد بن الاعرابي حدثنا ابن أبي العوام حدثنا يزيد بن هرون حدثنا أبو الاشهب عن الحسن قال قال رجل لعثمان بن عفان رضى الله عنه ذهبت يا أصحاب الاموال بالخير تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون فقال عثمان وإنکم لتغبطوننا وانا لتغبطکم قال فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهده خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض وفى سنن أبى داود من حديث الليث عن ابى الزبير عن يحيى بن جعدة عن

(١٤٨/١)

ابى هريرة أنه قال يا رسول الله أى الصدقة أفضل قال جهده المقل وابدأ بمن تعول وفى المسند وصحيح ابن حبان من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل قال جهده من مقل وفى سنن النسائي من حديث الاوزاعي عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن حبشى أن النبى سئل أى الاعمال أفضل قال ايمان لا شك فيه وجهاد لا غلول فيه وحجة مبرورة قيل فأى الصلاة أفضل قال طول القيام قيل فأى الصدقة أفضل قال جهده من مقل قيل فأى الهجرة أفضل قال من هجر ما حرم الله

عليه قيل فأى الجهاد أفضل قال من أهرىق دمه وعقر جواده
وهذه الاحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لا
يتبين أثر نقصانه عليه وان كان كثيرا لأن الاعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما فى القلوب لا بكثرتها
وصورها بل بقوة الداعى وصدق الفاعل وإيثاره الله على نفسه فأين صدقة من أثر الله على
نفسه برغيف هو قوته الى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضا من فيض فرغيف هذا
درهمه فى الميزان اثقل من مائة ألف هذا والله المستعان فصل
واحتجوا بما رواه ابن عدى من حديث سليمان بن عبد الرحمن حدثنا خالد بن يزيد عن أبيه عن عطاء
سمع أبا سعيد الخدرى يقول سمعت رسول الله يقول اللهم توفنى فقيرا ولا توفنى غنيا وهذا الحديث لا
يصح فان خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقى أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه
قال أحمد ليس بشئ وقال ابن معين واه ونسبه يحيى الى الكذب وقد تقدم فيه وقد سئل شيخ الاسلام
ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة فقال قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقر الصابر
أيهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد وحكى فى
ذلك عن الامام أحمد روايتان وأما الصحابة والتابعون رضى الله عنهم فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل
أحد الصنفين على الآخر وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على

(١٤٩/١)

الآخرى فضيلة الا بالتقوى فأيهما أعظم إيمانا وتقوى كان افضل فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيله
قال وهذا أصح الاقوال لأن نصوص الكتاب والسنة انما تفضل بالايمان والتقوى وقد قال تعالى ان يكن
غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما وقد كان فى الانبياء والسابقين الاولين من الاغنياء من هو أفضل من أكثر
الفقراء وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الاغنياء والكاملون يقومون بالمقامين فيقومون
بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا وحال أبي بكر وعمر رضى الله عنهما
ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع والغنى لآخرين أنفع كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض
لبعضهم أنفع كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره عن النبى فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ان من
عبادى من لا يصلحه الا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا الفقر ولو
أغنيته لأفسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وان من عبادى
من لا يصلحه الا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك انى أدبر عبادى انى بهم خبير بصير
وقد صح عن النبى أنه قال ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الاغنياء وفى الحديث الآخر لما علم
الفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الاغنياء فقالوا مثل ما قالوا فذكر ذلك الفقراء للنبى فقال ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء فالفقراء يتقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم والاعنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم ثم اذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه وان تأخر في الدخول كما أن السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشه بن محصن قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم في الدرجات لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب فهذا في الفقر المذكور في الكتاب والسنة وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة

ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والاخلاق

(١٥٠/١)

ويسمون من اتصف بذلك فقيرا وان كان ذا مال ومن لم يتصف بذلك قالوا ليس بفقير وان لم يكن له مال وقد يسمى هذا المعنى تصوفا ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل والتحقيق فى هذا الباب أنه لا ينظر الى الالفاظ المحدثه بل ينظر الى ما جاء به الكتاب والسنة من الاسماء والمعاني والله قد جعل وصف أوليائه الايمان والتقوى فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل والاعنياء بما سوى ذلك والله أعلم

الباب الثالث والعشرون فى ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة

والآثار والاعتبار

قالت الفقراء لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال فى القرآن الا على أحد وجوه الأول على وجه الذم كقوله تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض وقوله ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين وقال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وقال تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة الاية ونظائر ذلك كثيرة الوجه الثانى أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان كما قال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة وقال تعالى أيمسبون انما غمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى مخبرا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن الاية وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون

الوجه الثالث اخباره سبحانه وتعالى أن الاموال والاولاد لا تقرب اليه شيئا

وانما يقرب اليه الايمان والعمل الصالح كما قال وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون
الوجه الرابع إخباره أن الدنيا والغنى والمال انما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وقال تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وإلى هذا المعنى أشار النبي بقوله لعمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة وسيأتى الحديث

الوجه الخامس أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وقوله وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وقوله تعالى لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون الوجه السادس أنه سبحانه ذم محب المال فقال وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما فذمهم بحب المال وغيرهم به

الوجه السابع أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقى هذه الوصية وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله ثواب الله خير والسيره والطريقة التى دل عليها قوله لمن آمن وعمل صالحا وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الاغنياء وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها

الوجه الثامن انه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج

اليه لاقامة الملك فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم فرد الله سبحانه قوهم وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه وأن الفضل بالعلم لا بالمال وقال سبحانه قال بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما

يجمعون ففضله ورحمته العلم والايمان والقرآن والذى يجمعونه هو المال وأسبابه ومثله قوله تعالى أنهم
يقسمون رحمة ربك الى قوله ورحمة ربك خير مما يجمعون

الوجه التاسع انه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد
لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف
تعلمون فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت
فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت ايذانا بأنهم غير
مستوطنين ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في
الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك
ذكره اما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشئ لا المتكاثر به كما يقال شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما
يلعب ويلهو به واما ارادة الاطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو
عبيد أو اماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغي به وجه الله أو عمل لا يقربه الى الله فكل هذا من التكاثر
الملهى عن الله والدار الآخرة

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال انتهيت الى النبی وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال
يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفريت أو لبست فأبليت
ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدا مؤكدا اذا عاين تكاثره هباء منثورا وعلم دنياه التي كثر بها انما
كانت خدعا وغرورا فوجد عاقبة

(١٥٣/١)

تكاثره عليه لا له وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه وصار
تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه فعذب بتكاثره في دنياه ثم عذب به في
البرزخ ثم يعذب به يوم القيامة فكان أشقى بتكاثره اذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة فلم يفز
من تكاثره الا بأن صار من الأقلين ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا بأن حصل مع الاسفلين فيا له
تكاثرا ما أقله ورزءا ما أجله ومن غنى جالبا لكل فقر وخيرا توصل به الى كل شر يقول صاحبه اذا
انكشف عنه غطاءؤه يا ليتنى قدمت لحياتى وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى رب ارجعوني لعلنى أعمل
صالحا فيما تركت كلا انما كلمة هو قائلها تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب
إليها

وتأمل قوله أولا رب استغاث بربه ثم التفت الى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى
فقال أرجعوني ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه

وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له كلا لا سبيل لك الى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر
ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاتته أخبر سبحانه أن
سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحا لو
أجيب وانما ذلك شئ يقوله بلسانه وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه وأنه من الكاذبين فحكمه أحكم الحاكمين
وعزته وعلمه وحمده يأبى اجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته
الاولى كما قال تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار قالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من
المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون
وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدوها لا تشفى عيلا ولا تروى
غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الاضراب ببل ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا
يخفونه ووطنوا أن الذى بدا لهم

(١٥٤/١)

العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئما مع قوله ما كانوا يخفون من قبل قد روا مضافا محذوفا وهو خبر ما
كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شرهم
وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا ان القوم
في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شرهم وجحدوه وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا
على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه قال الواحدى وعلى هذا أهل التفسير ولم يصنع أرباب هذا
القول شيئا فإن السياق والاضراب ببل والاخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقولهم والله ربنا
ما كنا مشركين لا يلتئم بهذا الذى ذكره فتأمله

وقالت طائفة منهم الزجاج بل بدا للاتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث وهذا التفسير يحتاج
إلى تفسير وفيه من التكلف ما ليس بخاف واجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال كأن كفرهم لم
يكن باديا لهم اذ خفيت عليهم مضرتهم ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه
كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره قال وهذا كما تقول
لمن كنت حدثته في أمر قبل وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهرا له قبل هذا ولا يسهل
أن يعبر عن كفرهم وشرهم الذى كانوا ينادون به على رءوس الاشهاد ويدعون اليه كل حاضر وباد
بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى في الأرض
بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم

داخلوها تمنوا أنهم يردون الى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس في طبائعهم وسجائهم الايمان بل سجيئهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الاضراب ببل وتبين معنى الذى بدا

(١٥٥/١)

هم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهره بينهم بل تواصلوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق فعانوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالايمان ولعادوا الى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل وانما تمنوا لما عانوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه فقيل له ان اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاناة العقوبة بل بعد أن مسته وأهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نماء عنه ولو رد لعاد لما نهي عنه

وتأمل مطابقة الاضراب لهذا المعنى وهو نفى قولهم انا لو رددنا لآمننا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أى ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شئ لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصلون بإخفائه وكتمانه والله أعلم ولا تستغل هذا الفضل المعارض فى أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق فلنرجع الى تمام الكلام فيها

وقوله كلا لو تعلمون علم اليقين جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أى لما ألهاكم التكاثر وانما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذى يصل به صاحبه الى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها ولو وصلت حقيقة هذا العلم الى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه

(١٥٦/١)

ويرتب أثره عليه فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجه عنه من أندر شيء وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضى الله عنه في أهل بدر
سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
وقوله كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون قيل تأكيد لحصول العلم كقوله كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون وقيل ليس تأكيدا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت والعلم الثاني في القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه أحدها أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الاختلال بالفصاحة الثاني توسط ثم بين العلمين وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانا وخطرا الثالث ان هذا القول مطابق للواقع فإن المختصر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علما هو فوق الأول الرابع أن عليا بن أبي طالب رضى الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر قال الترمذى حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازى عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي رضى الله عنه قال ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت الهاكم التكاثر قال الواحدى يعنى أن معنى قوله كلا سوف تعلمون في القبر
الخامس ان هذا مطابق لما بعده من قوله لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقديم الأولى وتراخى الثانية عنها ثم ختم السورة بالآخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤال آخر هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا فالأول سؤال عن سبب استخراجيه والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبي رباح

(١٥٧/١)

عن ابن عمر عن النبي قال لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعمادا عمل فيما علم وفيه أيضا عن أبي برزة قال قال رسول الله لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه قال هذا حديث صحيح وفيه أيضا من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ان أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة

يعنى من النعيم أن يقال له ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد
وفيه أيضا من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه لما نزلت لتسئلن يومئذ عن النعيم قال الزبير يا
رسول الله فأى النعيم نسئل عنه وانما هو الأسودان التمر والماء قال أما انه سيكون قال هذا حديث
حسن وعن أبى هريرة نحوه وقال انما هو الاسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا قال ان ذلك
سيكون وقوله ان ذلك سيكون إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم وإما أن يرجع الى
السؤال أي ان السؤال يقع عن ذلك وان كان قمرا وماء فانه من النعيم ويدل عليه قوله فى الحديث
الصحيح وقد أكلوا معه رطبا ولحما وشربوا من الماء البارد هذا من النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة
فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه
وفى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى قال يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين
يدى الله تعالى فيقول الله أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يا رب جمعته وثمرته
فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتيك به فاذا عبيد لم يقدم خيرا فيمضى به الى النار وفيه من حديث

(١٥٨/١)

أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالوا قال رسول الله يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله ألم أجعل لك
سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحراث وتركتك ترأس وترتع أفكنت تظن أنك ملاق
يومك هذا فيقول لا فيقول له اليوم أنساك كما نسيتنى قال هذا حديث صحيح
وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسئولون عن النعيم وذكر ذلك عن
الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك واحتج بحديث أبى بكر لما نزلت هذه الآية قال رسول الله أرايت
أكلة أكلتها معك بيت أبى الهيثم بن النبهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا
أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه فقال رسول الله انما ذلك للكفار ثم قرأ وهل نجازى إلا الكفور
قال الواحدى والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم والمعنى أيضا
يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث اشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن
يسئلوا عما أنعم به عليهم توبيخا لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ثم يعذبون على ترك
الشكر بتوحيد المنعم قال وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال لا يسئل عن النعيم الا أهل النار
قلت ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار بل
ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء النكاثر له فلا وجه
لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبى عند قراءة هذه السورة يقول ابن
آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت الحديث وهو فى صحيح مسلم

وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافرا ويدل عليه أيضا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي وفهمهم العموم حتى قالوا له وأى نعيم نسئل عنه وإنما هو الاسودان فلو كان الخطاب مختصا بالكفار لبين لهم ذلك وقال ما لكم ولها إنما هي للكفار فالصحابه فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم

(١٥٩/١)

وأما حديث أبي بكر الذي أحتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد بطلانه ونحن نسوقه بلفظه ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة قالوا الجوع يا رسول الله قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته امرأته قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله وأين فلان قالت ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصارى فنظر الى رسول الله وصاحبيه فقال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا من هذا فأخذ المدينة فقال له رسول الله إياك والحلوبة فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شعبوا ورووا قال رسول الله لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار

وايضا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأن الالهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرا بل أكثرهم قد الهاء التكاثر وخطاب القرآن عام لمن بلغه وان كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين وان نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ونظائره كما دخل تحتها الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله أهاكم التكاثر خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف وهم في الالهاء والتكاثر درجات لا يحصيها الا الله

فإن قيل فالمؤمنون لم يلهمم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن الهاء قيل هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به وجواب هذا أن الخطاب

(١٦٠/١)

للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله وكان الإنسان عجولا وكان الإنسان قتورا إن الإنسان لربه لكنود وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا إن الإنسان لكفور ونظائره كثيرة فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدا للآخرة مؤثرا لها على التكاثر بالدنيا فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاناة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلًا له فى الدنيا وليس فى قوله سوف تعلمون ما يقتضى دخول النار فضلا عن التخليد فيها وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانا وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعا أما عليه وأما منه والاحاديث الصحيحة الصريحة تردده وبالله التوفيق ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تحويفها وما تضمنته من تحذير الملهى وانطباق معناها على أكثر الخلق يأتى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ويكفى فى ذلك تأمل الاحاديث المرفوعة فيها والله أعلم وتأمل ما فى هذا العتاب الموجه لمن استمر على الهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الهاء بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير

(١٦١/١)

تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها وأيضا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم

اذ لم يتكاثروا بها وكل من كاثر انسانا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكائثرته عن مكائثره أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية انما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكائثره ويسابقها اليها فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة هو صائر الى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان والتكاثر بأسباب السعادة الآخروية تكاثر لا يزال بذكر بالله ولقائه وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تغنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً واذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكائثره بها وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في اخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات وقد كانت هذه حال الاوس مع الخزرج رضى الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ومكائثره بعضهم لبعض في اسباب مرضاته ونصره وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما فلما تبين له مدى سبقه له قال والله لا أسابقك الى شئ أبداً

فصل ومن تأمل حسن موقع كلا في هذا الموضع فانها تضمنت ردعا لهم

وزجرا عن التكاثر ونفيا وابطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكما لهم به

(١٦٢/١)

فتضمنت اللفظة نفيا ونفيا وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرتهم علما بعد علم وأنهم لا بد أن يروا دار المكائثرين بالدنيا التى أهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن اسباب تكاثرتهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرا واشدها ترغيبا فى الآخرة وتزهيدا فى الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحيا فصل

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم الى غاية كل حى زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون فى المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار فإذا كانوا عند وصولهم الى الغاية زائرين فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل الى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر فهنا هنا ثلاثة أمور عبور السبيل فى هذه الدنيا وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة الى دار القرار فصل فلنرجع الى تمام المناظرة قالوا فالله تعالى حى أوليائه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريماً لهم وتطهيراً عن أدناسها ورفعاً عن دنائتها وذمها لهم وأخبرهم بموانها عليه وسقوط قدرها عنده وأعلمهم أن

بسطها فتنة وأنه سب الطغيان والفساد في الارض وإلهاء التكاثر بها عن طلب الاخرة وأنها متاع الغرور ودم محبيها ومؤثريها وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له في الاخرة من نصيب واخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة وإن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب اليه ولا تزلف لديه وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الاخرة ونهى رسوله عن مد عينيه اليها والى مامتع به أهلها ودم من أذهب طبياته فيها واستمتع

(١٦٣/١)

بها وقال لنبيه ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون وفي هذا تعزية لما منعه أوليائه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها ولا م سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه واخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل الى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون اليها فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثالا كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبسا هشيمًا تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه اذا عاين العبد الأخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوما أو بعض يوم ونهى سبحانه عباده أن يغتروا بها واخبرهم أنها هلو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور وطريق ومعبور الى الاخرة وأنها عرض عاجل لا بقاء له ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في ارادته فالله يريد شيئا ومريد الدنيا يريد خلافه فهو مخالف لربه بنفس ارادته كفى بهذا بعدا عنه سبحانه واخبر سبحانه عن أهل النار أنهم انما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيتها لهم قالوا وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقلل منها ما أمكن قالوا وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق اليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد فلم يردّها ولم يخترها ولو أثرها وارادها لكان أشكر الخلق بما اخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعاً بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن محمد حدثنا عباد يعنى ابن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن

مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة
مثنية فرجعت الى منزلها

(١٦٤/١)

فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله فقال ما هذا فقلت فلانة الانصارية دخلت
على فرأت فراشك فبعثت الى بهذا فقال رديه فلم أردّه وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث
مرات فقال يا عائشة رديه والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة
وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت تضرعت اليك
وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتا كما في الصحيحين من
حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وفيهما عنه قال
والذى نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا
وفي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه ما أعلم أن رسول الله رأى رغيفا مرققا ولا شاة سميطة قط
حتى لحق بربه وفي صحيحه أيضا عنه قال خرج رسول الله ولم يشبع من خبز الشعير وفي الصحيحين عن
عائشة رضى الله عنها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض وفي
صحيح مسلم عن عمر رضى الله عنه لقد رأيت رسول الله يظل اليوم ما يجد دقلا يملأ بطنه
وفي المسند والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعات طاويا وأهله
لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفي الترمذى
من حديث أبي أمامة ما كان يفضل أهل بيت رسول الله خبز الشعير وفي المسند عن عائشة رضى الله
عنها والذى بعث محمدا بالحق ما رأى منخلا ولا أكل خبزا منخولا منذ بعثه الله عز وجل الى أن قبض
قال عروة فقلت فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول أف أى نفخه فيطير ما طار ونعجن الباقي
وفي صحيح البخارى عن أنس قال لقد رهن رسول الله درعه بشعير ولقد سمعته يقول ما أصبح لآل
محمد صاع ولا أمسى وانهم لتسعة ابيات

(١٦٥/١)

وفي مسند الحارث عن أبي أسامة عن أنس أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبي فقال ما
هذه الكسرة يا فاطمة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال أما إنه أول
طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضى الله عنه قال لما حفر رسول الله الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي على بطنه حجرا من الجوع وقد أسرف أبو حاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالح في إنكاره وقال المصطفى أكرم على ربه من ذلك وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الاحاديث في معيشة النبي وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم ولقد توفاه الله وان درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجيئت اليه الاموال ومات ولم يترك درهما واحدا ولا دينارا ولا شاة ولا بعيرا ولا عبدا ولا أمة

قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة أنه سمع عائشة تقول كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله نار قلت يا خالة فعلى أى شئ كنتم تعيشون قالت على الأسودين التمر والماء وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم ابن النبهان وانه خرج رسول الله من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فقال ما أخرجكما قالا الجوع قال وأنا والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما

وذكر أحمد من حديث مسروق قال دخلت على عائشة فدعت لى بطعام وقالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى الا بكيت قال قلت لم قالت أذكر الحال التى فارق عليها رسول الله الدنيا والله ما شبع في يوم مرتين من خبز البر

(١٦٦/١)

حتى قبض وفيه عنها ما شبع رسول الله من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض والحديثان صحيحان وفيه ايضا عنها ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عزوجل وفي الصحيحين عن أبي هريرة ما شبع رسول الله وأهله ثلاثا أتباعا من خبز البر حتى فارق الدنيا وفي الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان النبي يبيت الليالى طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير وفيه أيضا عن أنس عنه لقد اخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ولبد إلا شئ يواريه إبط بلال والحديثان صحيحان وفيه ايضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن أبي طلحة رضى الله عنه قال شكونا الى رسول الله الجوع ورفعنا عن بطوننا حجرا حجرا فرفع رسول الله عن بطنه حجرين وفيه أيضا عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال نام رسول الله على حصير فقام وقد اثر في

جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها حديث صحيح وفيه عن على رضى الله عنه قال خرجت فى يوم شات من بيت رسول الله وقد أخذت اهابا معطونا فجوبت وسطه وأدخلته فى عنقى فشددت به وسطى فحزمته بخوص من النخل وانى لشديد الجوع ولو كان فى بيت رسول الله طعام لطعمت منه فخرجت التمس شيئا فمررت بيهودى فى مال له وهو يسقى ببكرة له فاطلعت عليه من ثلثة من الحائط فقال مالك يا أعرابى وهل لك فى كل دلو بتمرة قلت نعم فافتتح الباب حتى أدخل ففتح فدخلت فأعطاني دلوه فكلما نزع دلوأ أعطاني تمرة حتى امتلأت كفى أرسلت دلوه وقلت حسبى فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماء فوجدت رسول الله فيه وقال سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ما لنا طعام الا الحبله وهذا السمر والحبله ثمر العضاة ذات الشوك وهو حديث صحيح وكان يصلى من الليل أحيانا وعليه كساء صوف بعضه عليه وبعضه على

(١٦٧/١)

عائشة قال الحسن أثمان ستة دراهم أو سبعة وقال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن على قال جهز رسول الله فاطمة فى خميل وقربة ووسادة من آدم حشوها ليف والخميل الكساء الذى حمل قال وحدثنا بهز بن اسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال قال أبو بردة دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعوها الملبدة فقالت قبض رسول الله فى هذين الثوبين قالوا ولو كان الغنى مع الشكر افضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله إذ عرضت عليه الدنيا ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم ولم يكن رسول الله ليختار الا ما اختاره الله له ولم يكن الله ليختار له الا الافضل اذ كان افضل خلقه وأكملهم قالوا وقد أخبر النبى أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه

قال الامام أحمد حدثنا ابن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن خليلد العصرى عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ما طلعت شمس قط الا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض الا الثقليين يا أيها الناس هلموا الى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط الا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض الا الثقليين اللهم أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن ابن ابى لبيبة عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى

وتأمل جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن رزق الدنيا والآخرة واخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد فيكفى من الذكر اخفاؤه فإن زاد على الاخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين وكذلك رزق البدن اذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر قالوا وقد غبط رسول الله المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى

(١٦٨/١)

قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا علي بن صالح عن أبي المهلب عن عبيد الله ابن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ان أغبط أوليائي عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه بالاصابع فجعلت منيته وقل ترائه وقلت بواكيه قال عبد الله بن أحمد سألت أبي ما ترائه قال ميراثه قالوا وحمة الله لعبده المؤمن عن الدنيا انما هو من محبته له وكرامته قال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن رسول الله قال ان الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم قالوا وقل أن يقع اعطاء الدنيا وتوسعتها الا استدراجا من الله لا اكراما ومحبة لمن أعطاه قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران النجى عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبي قال اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا قوله تعالى فلما نسو ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء الآية قالوا وهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن سالم بن ابى الجعد قال قال رسول الله ان من أمتى لو أتى باب احدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه اياه ولو سأل الدنيا لم يعطها اياه وما يمنعها اياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره وهذا يدل على انه انما يمنعها اياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الآخرة الا من يحب قالوا وقد اخبرهم النبي أن أقربهم منه مجلسا ذووا التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال

(١٦٩/١)

سمعت عراك بن مالك يقول قال ابو ذر إني لأقربكم مجلسا من رسول الله يوم القيامة وذلك إني سمعته يقول ان أقربكم مني مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهينة ما تركته فيها وانه والله ما منكم من أحد الا وقد تشبث منها بشيء غيرى قالوا وقد غبط النبي من كان عيشه كفافا وأخبر بفلاحه قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال أخبرني أبو هاني أن أبا علي الحبشى أخبره أنه سمع فضاله بن عبيد يقول أنه سمع رسول الله يقول طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع وذكر أيضا من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله قال قد أفلح من اسلم رزق كفافا وقنعه الله بما آتاه قالوا ولو لم يكن في التقلل الا خفة الحساب لكفى به فضلا على الغنى قال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال حدثني بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال قال رسول الله ثلاثة لا يحاسب بهم العبد ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى عورته

وقال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبي عثمان قال لما افتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال وكان رجل يمشى الى جنب سلمان فقال يا أبا عبد الله ألا ترى الى ما فتح الله علينا ألا ترى الى ما أعطانا الله فقال سلمان وما يعجبك مما ترى الى جنب كل حبة مما ترى حساب

قالوا وقد شهد النبي لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد أبو الاشهب عن الحسن قال قال نبي الله يا أهل الصفة كيف أنتم قالوا نحن بخير قال أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى ويغدو في حلة ويروح في أخرى وتسترون في بيوتكم مثل أستار الكعبة قالوا يا نبي الله نحن يومئذ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر قال بل أنتم اليوم خير فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم خير منهم في وقت غناهم مع الشكر

(١٧٠/١)

وقال عبد الله بن أحمد حدثنا ابن ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الاسود عن طلحة البصرى قال قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين فصلى بنا رسول الله صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر وعرفت عنا الكنف فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح وتلبس ببيوتكم مثل أستار الكعبة قالوا يا رسول الله نحن اليوم خير منا أو يومئذ قال بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ أنتم اليوم خير منكم يومئذ يضرب بعضكم

رقاب بعض

قال الامام أحمد وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله دخل على أهل الصفة فذكر نحوه

قالوا ولو لم يكن في الغنى والمال الا أنه فتنة وقل من سلم من اصابته له وتأثيرها في دينه كما قال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة وفي الترمذى من حديث كعب ابن عياض قال سمعت رسول الله يقول ان لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال قال هذا حديث حسن صحيح قالوا والمال يدعو الى النار والفقر يدعو الى الجنة قال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا أبو الاشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال بينا رسول الله يحدث أصحابه اذ جاء رجل من الفقراء فجلس الى جنب رجل من الاغنياء فكأنه قبض من ثيابه عنه فقال رسول الله أخشيت يا فلان أن يغدو وغناك عليه أو يغدو فقره عليك قال يا رسول الله وشر الغنى قال نعم ان غناك يدعوك الى النار وان فقره يدعو الى الجنة قال فما ينجنى منه قال تواصيه قال اذن افعل فقال الآخر لا أرب لى فيه قال فاستغفر وادع لأخيك

قالوا وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره وقد روى الترمذى في جامعه من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبي قال ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى به عورته وجلف الخبز والماء

(١٧١/١)

قال هذا حديث حسن صحيح وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى

وفي صحيحه أيضا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رضى الله عنه قال بينما نحن في سفر مع رسول الله اذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يميننا وشمالا فقال رسول الله من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل

قالوا فهذا موضع النظر في تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله وأما غنى يمتنع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابرا راض عن الله في فقره قالوا وقد أقسم رسول الله لأصحابه وهم أئمة الشاكرين أنه لا يخاف عليهم الفقر وانما يخاف عليهم الغنى ففى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف وكان شهد بدرا أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتي بجزيته وكان رسول الله صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من

البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله فلما صلى رسول الله انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ من البحرين فقالوا أجل يا رسول الله قال أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم

قال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن قال قيل لأبى ثعلبة الخشنى أين دنياكم والى كنتم تعدون يا أصحاب محمد قال ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل والله الذى لا اله الا هو الايمان كما تأكل النار الحطب الجزل وقال أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام بن حسان قال سمعت الحسن يقول والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها الا كان قد نقص علمه

(١٧٢/١)

وعجز رأيه وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه قالوا وقد مر على النبی فقير وغنى فقال عن الفقير هذا خير من ملء الأرض مثل هذا وروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال مر رجل على رسول الله فقال ما تقولون فى هذا فقالوا جرى ان خطب أن ينكح وان شفع أن يشفع وان قال أن يسمع قال ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون فى هذا قالوا حرى ان خطب أن لا ينكح وان يشفع الأيشفع وان قال ان لا يسمع لقوله فقال رسول الله هذا خير من ملء الارض مثل هذا

وقد بشر رسول الله الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء فى الترمذى من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الاعراب هؤلاء مجانين فإذا صلى رسول الله انصرف اليهم وقال لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتهم أن تزدادوا فاقة وحاجة قال فضالة وأنا يومئذ مع رسول الله وبشرهم بسبقهم الاغنياء الى الجنة وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا يا أبا محمد والله ما نقدر على شئ لا نفقة ولا دابة ولا متاع فقال لهم ما شئتم ان شئتم رفعتم الينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم وان شئتم ذكرنا أمركم للسلطان وان شئتم صبرتم فإني سمعت رسول الله يقول ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا قالوا نصبر ولا نسأل شيئا وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن بن سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام قال الترمذى حديث حسن

صحيح وفي الترمذى أيضا من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم

(١٧٣/١)

بخمسمائة سنة وهو حديث حسن وفيه وأيضا من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبي قال يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا وهو حديث حسن وهو موافق لحديث عبد الله بن عمر ولحديث أنس الذى فى الترمذى ان المساكين يدخلون قبل الاغنياء باربعين خريفا فهؤلاء ثلاثة جابر وأنس وعبد الله بن عمر وقد اتفقوا على الاربعين وهذا أبو هريرة وأبو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة ولا تعارض بين هذه الاحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق باربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص وقد روى أبو داود فى سننه من حديث أبي هريرة عن النبي أن أول الامة دخولا الى الجنة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ومعلوم أن المدة التى بينه وبين اخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول وانها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة

وقد روى الامام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبي أنه قال هل تدرون أول من يدخل الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء تقول الملائكة يا ربنا ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا فيقول عبادى لا يشركون بى شيئا يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار

وقال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد ثنا دويد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فيقول أى أخى ماذا حبسك والله لقد احتبست حتى خفت عليك فيقول أى أخى انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ما وصلت اليك حتى سال منى من العرق ما لو ورده ألف بغير كلها أكلت

(١٧٤/١)

حمضا لصدرت عنه رواء رواه وقال الطبراني في معجمه حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي وعلي بن سعيد الرازي قالا حدثنا علي بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك ابن أبي كريمة عن الثوري عن محمد بن زيد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة فقال رجل أمنهم أنا يا رسول الله قال إن تغديت رجعت على عشاء وإذا تعشيت بييت معك غداء قال نعم قال لست منهم فقام رجل فقال أمنهم أنا يا رسول الله قال هل سمعت ما قلنا لهذا قال نعم ولست كذلك قال هل تجد ثوبا ستيرا سوى ما عليك قال نعم قال فلست منهم فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله فقال هل سمعت ما قلت لهذين قبلك قال نعم قال هل تجد قرضا كلما شئت أن تستقرض قال نعم قال فلست منهم فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء قال نعم قال تقدر ان تكتسب قال نعم قال فلست منهم قال فقام خامس فقال أنا منهم يا رسول الله فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء قال نعم قال هل تمسى عن ربك راضيا وتصيح كذلك قال نعم قال فأنت منهم قال النبي ان سادات المؤمنين في الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء واذا تعشى لم يبيت عنده غداء وان استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به مالا يجد منه بدا ولا يقدر على أن يكتسب ما يعيشه ويمسى عن الله راضيا ويصبح راضيا أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا قال الطبراني هذا حديث غريب من حديث سفيان الثوري عن محمد بن زيد يقال هو العبدى تفرد به عبد الملك

قلت محمد هذا هو العبدى وثقه قوم وضعفه آخرون قال الداقطنى ليس بالقوى وقال أبو حاتم صالح الحديث وذكره ابن حبان في الثقات وروى له الترمذى وابن ماجه وفي هذه الطبقة محمد بن زيد الشامي يروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونحاف أن يكون هذا هو الثوري لم ينسبه وإنما يقال هو العبدى والله أعلم

(١٧٥/١)

وقال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن ابراهيم حدثنا هشام الدستوائى عن يحيى ابن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه وفقير متعفف ذو عيال وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مستلط وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله في ماله وفقير فخور وروى الترمذى منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط قالوا ويكفى في فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء وعامة أهل النار الاغنياء قال الامام أحمد حدثنا

عبد الله بن محمد بن أبي شيبة حدثنا شريك عن أبي اسحاق عن السائب بن مالك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله أطلع في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء

وفي صحيح البخاري عن أبي رجاء قال جاء عمران بن حصين الى امرأته من عند رسول الله فقالت حدثنا ما سمعت من النبي فقال انه ليس من حديث فلم تدعه أو قال فأغضبته فقال سمعت رسول الله يقول نظرت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ونظرت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله قال قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي اطلع في النار فرأى أكثر أهلها النساء واطلع في الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء قالوا ويكفي في فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء قال الامام احمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا اسماعيل يعني ابن خالد عن نفيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير الا ود أن ما كان أوتي في الدنيا قوتا قال البخاري يتكلمون في نفيح وهذا أليق ما قيل فيه

(١٧٦/١)

قالوا وقد صرح رسول الله في تفضيل الفقراء في غير حديث فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد قال فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له قال فقلت هذا قال فقال يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه في المسجد قال فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق قال فقلت هذا قال فقال رسول الله والذي نفسي بيده لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الارض من هذا

قال حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الاعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة ابن الحر عن أبي ذر فذكره فذكره وقال لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الارض مثل هذا قال الامام أحمد وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى قال حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر فذكره قالوا والذي يفصل بيننا في هذه المسألة ويشفي العليل أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومترلته عند الله والغنى ولو شكر فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة وان تناوله بأحل وجهه فقليل الفضل في الدنيا ناقص من كثير الآخرة وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله قال ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث

وان لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم

وفي الصحيحين عن خباب بن الارت رضى الله عنه قال هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك بردة فكنا اذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه فأمرنا رسول الله أن نغطى رأسه ونجعل على رجله شيئا من الاذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال دخلنا على خباب نعوذه وقد اكتوى سبع كيات فقال ان أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا وذكر الحديث

(١٧٧/١)

وقال سعيد بن منصور حدثنا معاوية عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ما أوتي عبد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجاته عند الله وان كان عليه كريما وفي صحيح البخارى عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال أوتي عبد الرحمن رضى الله عنه بطعام وكان صائما فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير منى وكفن فى بردة ان غطى رأسه بدت رجلاه وان غطى رجلاه بدا رأسه وقتل حمزة رضى الله عنه وهو خير منى فلم يوجد له كفن إلا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام

قال أبو سعيد بن الاعرابى وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل وأن ما آخروا له كان أنقص منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضى الله عنهم

فأما أبو بكر رضى الله عنه فحدثنا ابن ابى الدنيا حدثنا عبد الرحمن بن ابان الطائى حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثنى سلمان عن مرة عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدرُوا على مسأله قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك فقال كنت مع رسول الله فرأيتُه يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله ما الذى تدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها اليك عنى ثم

رجعت فقالت انك ان أفلت منى فلن يفلت منى من بعدك
وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن

(١٧٨/١)

عوف عن أبيه أن أبا بكر رضى الله عنه قال فى مرضه الذى مات فيه إني وليت أمركم واني لست
بخيركم وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الامر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم
تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج وحتى يآلم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يآلم
من الاضطجاع على الحسك والسعدان ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يمينا وشمالا ما هذا الطريق
أخطأت انما هو البحر أو الفجر والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض
غمرات الدنيا

وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال كنت جالسا مع أبي بكر فرأى طائرا فقال طوبى لك يا طائر تأكل
من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئا وليس عليك حساب وددت أنى مكانك فقلت له أتقول هذا
وأنت صديق رسول الله

وأما عمر رضى الله عنه فإنه لما اتى بكنوز كسرى بكى فقال له عبد الرحمن ابن عوف ما الذى يبكيك
يا أمير المؤمنين فوالله ان هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح فقال عمر ان هذا لم يعطه قوم الا ألقى
الله بينهم العداوة والبغضاء ودخل عليه أبو سنان الدؤلئى وعنده نفر من المهاجرين فأرسل عمر الى سفيث
أتى به من قلعة بالعراق وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى فقال
له من عنده لم تبكى وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك فقال سمعت رسول الله يقول لا تفتح الدنيا
على أحد الا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وأنا مشفق من ذلك

قال أبو سعيد وجدت فى كتاب بخط يدى عن أبي داود قال حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا
يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفى القوم
سراقة بن مالك فألقى اليه سوارى كسرى فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يد سراقة قال
الحمد لله سوارا كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج ثم قال اللهم قد
علمت أن رسولك قد كان يجب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا
منك له واختيارا اللهم انى أعوذ بك أن يكون هذا مكر منك بعمر

(١٧٩/١)

ثم قال أيجسبون أنما نغدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن ابن أبي صغيرة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال لما كان يوم أحد أشرف النبي على الشهداء الذين قتلوا يومئذ فقال اني شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم قال معمر وأخبره فيمن سمع الحسن يقول قال النبي هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم لم يأكلوا من أجورهم شيئا وانكم قد أكلتم من أجوركم واني لا أدري ما تحدثون بعدى

وقال ابن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال سمعت الحسن يقول خرج رسول الله بأصحابه الى بقيع الغرقد فقال السلام عليكم يا أهل القبور لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ثم أقبل على أصحابه فقال هؤلاء خير منكم فقالوا يا رسول الله اخواننا أسلمنا كما أسلموا وهاجرنا كما هاجروا وجاهدنا كما جاهدوا وأتوا على آجالهم فمضوا فيها وبقينا في آجالنا فما يجعلهم خيرا منا فقال ان هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئا وخرجوا وأنا شهيد عليهم وأنتم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون بعدى قال فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بما فقالوا وانا لحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم وانه لمنتقص به من أجورنا فأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا وقدموا فضلا

وقال عبد الله بن أحمد قرأت على أبي هذا الحديث حدثنا اسود بن عامر حدثنا اسرايل عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قال ما أعطى رجل من الدنيا الا نقص من درجته

قالوا وقد صرح سادات الاغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا وابتلوا بالسراء فلم يبصروا قال ذلك عبد الرحمن وغيره وكان هذا مصداقا لما رواه مصعب بن سعد عن ابيه قال قال رسول الله لأنا من فتنه السراء أخوف عليكم من فتنه الضراء أنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم وان الدنيا حلوة خضرة قالوا وها هنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل احدهما أن الاكثرين هم الاقلون وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية

(١٨٠/١)

وأما الثانية ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله يمشى وحده ليس معه انسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد فجعلت أمشى في ظل القمر فالتفت فرآني فقال من هذا قلت أبو ذر جعلني الله فداك قال يا أبا ذر تعال فمشيت معه ساعة فقال ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من أعطاه الله خيرا فنفع فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا وذكر الحديث

قالوا ولو كان الغنى افضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد في الدنيا والاعراض عنها وذم

الحرص عليها والرغبة فيها بل كان ينبغي أن يحض عليها وعلى اكتسابها والاكتثار منها كما حض على اكتساب الفضائل التي بها كمال العبد من العلم والعمل فلما حض على الزهد فيها والتقليل دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها وإن مثلها في الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه في البحر وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل ويعد نفسه من أهل القبور وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم ودعا عليه بالتعس والانتكاس وعدم اقالة العثرة بالانتقاش وأخبر أنها خضرة حلوة أى تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقى النساء ويحذر منهن وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضارين إذا أرسلوا في زريبة غنم أو أشد افسادا وأخبر أنه في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها وهذه في الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم ولكن هو شهد هذه الحال وعمى عنها بنو الدنيا ومر بهم وهم يعالجون خصا لهم قد وهى فقال ما أرى الأمر ألا أعجل

(١٨١/١)

من ذلك وأمر بستر على بابه فترع وقال انه يذكرني الدنيا وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق في سوى بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وقوت يقيم صلبه وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة وأقسم أنه لا يخاف الفقر على أصحابه وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فإن لم يقتصر عليها فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه وفي هذا الحديث الارشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا وأخبر أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتا وغبط من كان رزقه فيها كفافا بعد أن هدى للاسلام وأخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وشنت عليه شمله ولم يأتها منها إلا ما كتب له وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فقال لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك وإذا شبعتم حمدتك وشكرتك وأعلمهم أن من أصبح منهم آمنا في سربه معافي في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا

وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له وإمساكه شر له وأنه لا يلام على الكفاف ونهى أمته أن ينظر أحدهم الى من هو فوقه في الدنيا وأمره أن ينظر الى من هو دونه في الدنيا وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلّاته وان كان أوله طيبا لذيذا فهذا آخره وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعين فيها فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضا من ذلك النعيم وأخبر أن نجة أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل وكان يقول لبيك لا عيش الا عيش الآخرة وأخبر أنه تعالى اذا أحب عبدا حماه الدنيا كما يحمي الانسان مريضه من الطعام والشراب ودخل على عثمان

(١٨٢/١)

ابن مطعون وهو في الموت فاكب عليه يقبله ويقول رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك فغبطه بذلك وكان يقول الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة في الدنيا تطيل الهموم والحزن وكان يقول من جعل الهموم كلها هما واحدا كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أى أوديتها هلك وأخبر أنه يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان في الدنيا فيقول الله عز و جل اصبغوه في النار صبغة ثم يؤتى به فيقول يا ابن آدم هل أصبت نعيما قط هل رأيت قرة عين قط هل أصبت سرورا قط فيقول لا وعزتك ثم يقول ردوه الى النار ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا وأجهدده جهدا فيقول تبارك وتعالى اصبغوه في الجنة صبغة فيصبع فيها ثم يؤتى به فيقول يا ابن آدم هل رأيت ما تكره قط فيقول لا وعزتك ما رأيت شيئا قط اكرهه وفي حديث مناجاة موسى الذي رواه الامام أحمد في كتاب الزهد حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم بن معقل حدثنا عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب ابن منبه فذكره وفيه ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ولا تمدان الى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين واني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر اليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ولكنى أرغب بكما عن نعيمها ذلك وازويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائي وقديما ما خرت لهم في ذلك فإني لاذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة واني لأجنبهم سلوقها وعيشها كما يجنب الراعى الشفيق ابله عن مبارك الغرة وما ذلك لهُواهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى واعلم انه لم يتزين لى العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون

به من السكينة والخشوع سماهم في وجههم من أثر السجود أولئك أوليائي حقا فإذا لقيتهم فاحفض لهم جناحك وذلّل لهم قلبك ولسانك وذكر الحديث

(١٨٣/١)

وقال أحمد حدثنا عون بن جابر قال سمعت محمد بن داود عن أبيه عن وهب قال قال الحواريون يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سترتهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتا وفرحهم بما أصابوا منها حزنا فما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليسوا يحدّدونها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها يهدمونها فينبون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ونظروا الى أهلها صرعى قد حلت بهم المثالات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه عملوا ليسوا يرون نائلا مع ما نالوا ولا أمانا دون ما يرجون ولا خوفا دون ما يحذرون وحدثنا روح حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال قيل لعيسى بن مريم يا رسول الله لو اتخذت حمارا تركبه لحاجتك قال أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئا يشغلني به وقال اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب المرء عند كثرة وقال اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز وقال يا بني اسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم في العالم من منزل ان أنتم إلا عابري سبيل وقال يا معشر الحواريين ايكّم يستطيع أن يبني على موج البحر دارا قالوا يا روح الله من يقدر على ذلك قال اياكم والدنيا فلا تتخذوها قارا وقال أكل الخبز البر وشرب ماء عذب ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس

قال أحمد وحدثنا بهز عن الاعمش عن خيشمة قال قال المسيح بشدة ما يدخل الغنى الجنة وقال المسيح حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة وقال يا بني اسرائيل تعاونوا بالدنيا فمن عليكم وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ولا تكرموا الدنيا فمن عليكم الآخرة فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو

(١٨٤/١)

الى الفتنة والخسارة وقال اسحق بن هانئ في مسألة قال أبو عبد الله وأنا أخرج من داره قال الحسن أهينوا الدنيا فوالله لأهناً ما تكون حين تمان وقال الحسن والله ما أبالي شرقت أم غربت قال وقال لى أبو عبد الله يا اسحق ما أهون الدنيا على الله عز وجل وقال الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى قالوا وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت ولكنه يروى عن المسيح قال عبد الله بن أحمد حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن بديل بن ميسرة قال حدثني جعفر بن خرفاش أن عيسى بن مريم عليه السلام قال رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حباله الشيطان والخمر جماع كل شر وقال الامام أحمد حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفري عن سفيان قال كان عيسى بن مريم يقول حب الدنيا أصل كل خطيئة والمال فيه داء كثير قالوا وما دأؤه قال لا يسلم من الفخر والخيلاء قالوا فان سلم قال يشغله اصلاحه عن ذكر الله عز وجل قالوا وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة فان حبها يدعو الى خطيئة ظاهرة وباطنة ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيها عليها فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها وعن كراهتها واجتنابها وحبها يوقع في الشبهات ثم في المكروهات ثم في المحرمات وطالما أوقع في الكفر بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم انما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا فان الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا ولا تنس خطيئة الأبوين قديماً فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا ولا تنس ذنب ابليس وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما وأبو جهل وقومه واليهود فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمر الجنة بأهلها والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير وصاحب هذا السكر لا يفيق منه الا في ظلمة اللحد ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر وانه اشد من سكر الخمر والدنيا تسحر العقول أعظم سحر

(١٨٥/١)

قال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال سمعت مالك بن دينار يقول اتقوا السحارة اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء

وقال يحيى بن معاذ الرازي الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادما بين الخاسرين وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره ومن الهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث اراد ومن فقعه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها وقد لعنه

رسول الله ودعا عليه فقال لعن عبد الدينار والدرهم وقال تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ان أعطى رضى وإن منع سخط وهذا تفسير منه وبيان لعبوديتها وقد عرضت الدنيا على النبي بحذافيرها وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين وردّها على عقبها ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ومنهم من استعرضها وقال ما فيك قالت في الحلال والشبهة والمكروه والحرام فقالوا هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا حلالها ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروها وشبهها فقالت قد أخذه من قبلكم فقالوا هاتى حرامك فأخذوه فطلبه من بعدهم فقالت هو فى أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرغبة فلا يمد فاجر يده الى شئ من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه اليه هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية كما قال ابن مسعود رضى الله عنه ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤادة

قالوا وانما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدا للدين من وجوه أحدها أن حبها يقتضى تعظيمها وهى حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله وثانيها أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها ومن أحب ما لعنه الله ومقتته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقتته وغضبه وثالثها انه اذا أحبها صيرها غايتها وتوسل اليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل اليه والى الدار الآخرة فعكس الأمر وقلب الحكمة فانعكس قلبه وانعكس سيره الى وراء فها هنا أمران أحدهما جعل الوسيلة

(١٨٦/١)

غاية والثانى التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا وهذا شر معكوس من كل وجه وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذى انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وقوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا وقوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضا وتدل على معنى واحد وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما اراد وهو نصيبه ليس له نصيب غيره

والاحاديث عن رسول الله مطابقة لذلك مفسرة له كحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار الغازى والمتصدق والقارئ الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب وهو فى صحيح مسلم

وفي سنن النسائي عن أبي أمامة رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبي فقال يا رسول الله رجل غزا
يلتمس الأجر والذكر ما له فقال رسول الله لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله لا شيء له
ثم قال إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه
قصد حصول الأجر لما ضم اليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله
وفي مسند الامام أحمد عن أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو
يبتغي عرض الدنيا فقال له رسول الله لا أجر له فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل عد لرسول الله لعله لم
يفهم فعاد فقال يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا فقال رسول الله لا
أجر له ثم أعاد الثالثة فقال رسول الله لا أجر له
وفي المسند ايضا وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال ان رسول الله قال من غزا في
سبيل الله عزوجل وهو لا ينوى في غزاته إلا عقالا فله ما نوى

(١٨٧/١)

وفي المسند والسنن عن يعلى بن منبه قال كان رسول الله يبعثني في سرايا فبعثني ذات يوم في سرية وكان
رجلا يركب بغلا فقلت له ارحل فإن النبي قد بعثني في سرية فقال ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة
دنائير ففعلت فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله فقال النبي ليس له من غزاته هذه ومن
دنياه وآخرته الا ثلاثة دنائير

وفي سنن أبي داود أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو فقال يا
عبد الله بن عمر ان قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا وان قاتلت مرأيا مكاثرا بعثك الله
مرأيا مكاثرا يا عبد الله بن عمر على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال
وفي المسند والسنن عن ابى ايوب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله يقول انما ستفتح عليكم الامصار
وتضربون فيها بعوثا فيكره الرجل منكم البعث فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول من
أكفيه بعث كذا وكذا إلا وذلك الأجير الى آخر قطرة من دمه فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد
من المجاهدين من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار فصل

ورابعها أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس
ها هنا مراتب فمنهم من يشغله محبوبه عن الايمان وشرائعه ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب
عليه لله ولخلقه فلا يقوم بما ظاهرا ولا باطنا ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ومنهم من
يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وان قام بغيره ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي
ينبغي على الوجه الذى ينبغي فيفرط في وقته وفي حقوقه ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب

وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهر الا باطنا وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها هذا من أندريهم وأقل درجات حبها ان يشغل عن سعادة العبد وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه

(١٨٨/١)

وجمع لسانه وقلبه على ربه فعشقتها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا الحديث قد روى مرفوعا من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فأثروا ما يبقى على ما يفنى فصل

وخامسها أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد وقد روى الترمذى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له فصل

وسادسها أن محبتها أشد الناس عذابا بها وهو معذب في دوره الثلاث يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها وفي دار البرزخ بفوائدها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجوا اجتماعه به ابدا ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه فهذا أشد الناس عذابا في قبره يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه كما قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبي بختنصر فذكر عنه حديثا طويلا وفي آخره قال فيينا أنا نائم على شط الفرات إذ أتاني ملك فاخذ براسي فاحتلمني حتى وضعني بقاع من الأرض قد كانت معركة قال واذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم قال لى إن قوما يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتي فادعهم قال حزقيل فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل الى مفصله الذى انقطع منه ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق حتى أم بعضها بعظام نبت عليها اللحم ثم نبتت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر الى ذلك ثم قال ادع أرواحهم قال فدعوتها فاذا كل روح قد أقبل الى جسده الذى فارق فلما جلسوا سألتهم فيم كنتم قالوا إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم قال فنظر في أعمالنا فوجدنا نعبد

(١٨٩/١)

الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا ولا يستريح عاشق الدنيا فقولهم كنا نعبد الأوثان فسيان عبادة الاثمان وعبادة الأوثان تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون قال بعض السلف يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها وهم كافرون بمنع حق الله فيها فصل وسابعا أن عاشقها ومحبيها الذى يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلا اذ أثر الخيال على الحقيقة والنام على اليقظة والظل الزائل على النعيم الدائم والدار الفانية على الدار الباقية وباع حياة الأبد فى ارغد عيش بحياة انما هى أحلام نوم أو كظل زائل ان اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل أعرابى بقوم فقدّموا له طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة فنام فاقتنعوا الخيمة فاصابته فانتبه وهو يقول وان امرؤ دنيه أكبر همّه ... لمستمسك منها بجبل غرور وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... ان اغترارا بظل زائل حق

قال يونس بن عبد الأعلى ما شبهت الدنيا الا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك انتبه وقال ابن أبى الدنيا حدثنى أبو على الطائى حدثنا عبد الرحمن البخارى عن ليث قال رأى عيسى بن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة فقال كم تزوجتى قالت لا أحصيهم قال فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلته فقال عيسى بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين قتلكنهم واحدا واحدا ولا يكونوا منك على حذر أرى اشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوع اراها وان كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

(١٩٠/١)

أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالأزواج تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح فقالت لا مهر إلا نقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح فأثر الخطاب العاجلة وقالوا ما على من واصل حبيبته من جناح فلما كشف قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية فمنهم من طلق واستراح ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح

تالله لقد اذن مؤذنها على رءوس الخلائق يحيى على غير الفلاح فقام المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالروح وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح

قال ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن علي بن شقيق حدثنا ابراهيم بن الأشعث قال سمعت الفضيل بن عياض قال قال ابن عباس رضى الله عنهما يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تشاجرت عليها بما تقاطعتم الأرحام وبما تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادى يا رب أين أتباعى وأشياعى فيقول الله عز وجل ألحقوا بما أتباعها وأشياعها

قال ابن أبي الدنيا وحدثنا اسحق بن اسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبي العلاء قال رأيت في النوم عجوزا كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون اليها فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم اليها وإقبالهم عليها فقلت لها ويلك من أنت قالت أما تعرفنى قلت لا

(١٩١/١)

قالت أنا الدنيا قال قلت أعوذ بالله من شرك قالت فان أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم

قال ابن أبي الدنيا وحدثني ابراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا سفيان بن عيينة قال قال لى أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوها شطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون فلما كانت بمحذائي أقبلت على فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر قال وحدثنا محمد بن علي حدثنا ابراهيم بن الأشعث قال سمعت الفضيل قال بلغنى أن رجلا عرج بروحه قال فاذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى والثياب واذا هى لا يمر بها أحد إلا جرحته وإذا هى أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس واذا أقبلت أقبح شيء عجوز شطاء زرقاء عمشاء فقلت أعوذ بالله قالت لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم قال قلت من أنت قالت أنا الدنيا ووصف على رضى الله عنه الدنيا فقال دار من صح فيها هرم ومن سقم فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن في حلالها الحساب وفي حرامها النار وقال ابن مسعود رضى الله عنه الدنيا دارت من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما أنزل آدم اليها عقوبة فاحذرهما يا أمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغناء فيها فقرها لها في كل حال قتيل تذلل من أعزها وتفقر من جمعها هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كمداد جرحاته يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء فاحذر هذه

الدار الغرارة الخيالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وشوقت لخطاياها
فأصبحت كالعروس الجلولة فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها واله والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها
كلهم قاتله فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر
فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى

(١٩٢/١)

زلت عنها قدمه فعظمت ندامته وكبرت حسرته واجتمع عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت
ونغصه فذهب منها في كمد ولم يدرك منها ما طلب ولم يرح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على
غير مهاد فاحذرهما يا أمير المؤمنين وأسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن
منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه السار فيها غذاء ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء
فيها الى فناء فسروورها مشوب بالحزن ما يرجع منها ما ولى فأدبر ولا يدري ما هو آت فينتظر أمانيتها
كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا
لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما
لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن وما نظر إليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيها بمفاتيحها وخزائنها
لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما ابغض الله خالقه أو يرفع ما وضع مليكه
فرواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغترارا فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ونسى
ما صنع الله بمحمد حين شد الحجر على بطنه

وقال الحسن أيضا ابن آدم لا تعلق قلبك في الدنيا فتعلقه بشر معلق اقطع حبالها وغلق أبوابها حسبك يا
أبن آدم منها ما يبلغك اخل وكان يقول إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنا ما
تكون إذا أهنتموها هيهات هيهات ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الاعناق

وقال المسيح عليه السلام لا تتخذوا الدنيا ربا فتخذكم عبيدا واعبروها ولا تعمروها واعلموا أن أصل
كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التا ط
قلبه منها بثلاثة شغل لا ينفك عناؤه وفقر لا يدرك غناؤه وأمل لا يدرك منتهاه الدنيا طالبه مطلوبه
فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجي الموت فيأخذ
بعنقه يا معشر الحوارين ارضوا بدنئ الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنئ الدين مع سلامة
الدنيا

(١٩٣/١)

وقال ابن ابى الدنيا حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك ابن دينار قال قال ابو هريرة رضى الله عنه الدنيا موقوفه بين السماء والارض منذ خلقها الله تعالى الى يوم ينفخها تنادى ربها يا رب لم تبغضنى فيقول اسكتى يا لا شئ اسكتى يا لا شئ وقال الفضيل تجئ الدنيا يوم القيامة فتبتخر فى زينتها ونصرتها فتقول يا رب اجعلنى لأحسن عبادك دارا فيقول لا أرضاك له أنت لا شئ فكونى هباء منثورا

فصل فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الاول للعبد ثلاثة أحوال حالة لم يكن فيها شيئا وهى ما قبل أن يوجد وحالة أخرى وهى من ساعة موته الى مالا نهائيه له فى البقاء السرمدى فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما فى الجنة واما فى النار ثم تعاد الى بدنه فيجازى بعمله ويسكن احدى الدارين فى خلود دائم ثم بين هاتين الحالتين وهى ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطه وهى أيام حياته فليتنظر الى مقدار زمانها وأنسبه الى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها فى ضر وضيق أو فى سعه ورفاهية ولهذا لم يضع رسول الله لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه وقال مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها وقال ما الدنيا فى الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه فى اليم فليتنظر بم يرجع والى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وهذا مثل صحيح فإن الحياة معبر الى الآخرة والمهد هو الركن الاول على أول القنطرة واللحد هو الركن الثانى على آخرها ومن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد من العبور فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور فهو فى غاية الجهل والحماق فصل المثال الثانى شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الاطعمه فى المعدة وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهه والنتن والقبح

(١٩٤/١)

ما يجده للأطعمه اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها وكما أن الأطعمه كلما كانت ألد طعما وأكثر دسما وأكثر حلاوة كان رجيحها أقدر فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألد وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقدته يقوى بقدر محبة المحبوب وفى المسند أن النبى قال للضحاك بن سفيان ألسنت تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه الماء واللبن قال بلى قال فىلى م يصير قال إلى ما قد علمت قال فإن الله عزوجل ضرب مثل الدنيا لما يصير اليه طعام ابن آدم كان بعض السلف يقول لأصحابه انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة

فيقول انظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم فصل
المثال الثالث لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات مثل أهلها في غفلتهم
مثل قوم ركبوا سفينة فانتبهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الإبطاء
وخوفهم مرور السفينة فتنفروا في نواحي الجزيرة فقصى بعضهم حاجته وبادر الى السفينة فصادف
المكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر الى أزهارها
وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ويعجبه حسن أحجارها ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة
مرورها وخطر ذهابها فلم يصادف إلا مكانا ضيقا فجلس فيه وأكب بعضهم على تلك الحجارة
المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حملة فلما جاء لم يجد في السفينة الا مكانا ضعيفا وزاده حملة
ضيقة فصار محموله ثقلا عليه ووبالا ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حملة بدا ولم يجد له في السفينة
موضعا فحملة على عتقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أرايحها وآذاه
نتنها وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسى السفينة وأبعد في نزهته حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع
السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيته فهو تارة يتناول من الثمر وتارة يشم تلك الأنوار وتارة يعجب
من حسن الأشجار وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منك من شوك يتشبث في ثيابه
ويدخل في قدميه أو غصن يجرح بدنه أو عوسج يخرق ثيابه

(١٩٥/١)

ويهتك عورته أو صوت هائل يفزعهم ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على
الساحل ومنهم من شغله لهو فافترسته السباع ونهشته الحيات ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك
فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردتهم وعاقبة أمرهم وما أقبح بالعقل أن
تغره أحجار ونبات يصير هشيما قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه فصل
المثال الرابع لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة قال ابن أبي الدنيا حدثنا اسحق بن اسماعيل
حدثنا روح بن عباد حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال بلغني أن رسول الله قال لأصحابه انما مثلى
ومثلكم ومثل الدنيا كمثلي قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي
أنفذوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهراى المفازة لا زاد ولا حيلة فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك
اذ خرج عليهم رجل في حلة يقطن رأسه فقالوا ان هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب
فلما انتهى اليهم قال يا هؤلاء انتم قالوا على ما ترى قال رأيتم ان هديتكم على ماء رواه ورياض
خضر ما تجعلون لى قالوا لا نعصيك شيئا قال عهدوكم ومواثيقكم بالله قال فأعطوه عهدوكم ومواثيقهم
بالله لا يحصونه شيئا قال فأوردتهم ماء ورياضا خضراء قال فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال يا هؤلاء

الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم قال فقال جل القوم وهم أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده وما نصنع بعيش هو خير من هذا قال وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل

فصل

المثال الخامس للدنيا وأهلها ما مثلها به النبي كظل شجرة والمرء مسافر فيها الى الله فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ثم راح وتركها فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء فأنها في خضرتها كشجرة وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئا فشيئا كالظل والعبد مسافرا الى ربه والمسافر اذا رأى شجرة

(١٩٦/١)

في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها دارا ولا يتخذها قرارا بل يستظل بها بقدر الحاجة ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق فصل

المثال السادس تمثيله لها بمدخل أصبعه في اليم فالذى يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة الى الآخرة وهذا أيضا من أحسن الامثال فإن الدنيا منقطعة فانية ولو كانت مدتها أكثر مما هي والآخرة أبدية لا انقطاع لها ولا نسبة للمحصور الى غير المحصور بل لو فرض أن السموات والارض مملوءتان خردلا وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل والآخرة لا تنفى فنسبة الدنيا الى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة الى ذلك الخردل ولهذا لو أن البحر يمد من بعده سبعة أبحر وأشجار الارض كلها أقلام يكتب بها كلام الله لنفذت الابحر والاقلام ولم تنفذ كلمات الله لأنها لا بداية لها ولا نهاية لها والابحر والاقلام متناهية

قال الإمام أحمد وغيره لم يزل الله متكلمًا إذا شاء وكماله المقدس مقتض لکلامه وکماله من لوازم ذاته فلا يكون الا كاملا والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم وهو سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمه من الكلام وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته وهو لا يكون الا ربا ملكا إلهيا لا إله الا هو والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة وساعة من ساعاتها

فصل المثال السابع ما مثلها به في الحديث المتفق على صحته من

حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال قام رسول الله فخطب الناس فقال لا والله ما أخشى عليكم الا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا فقال رجل يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر فصمت رسول الله ثم

قال كيف قلت قال يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر فقال رسول الله ان الخير لا يأتي الا بالخير وان مما
ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم الا آكله الخضر أكلت حتى

(١٩٧/١)

إذا امتلأت خاصرتها استقبلت الشمس فتطلت وبالت ثم اجترت فعادت فأكلت قمن أخذ مالا بحقه
بورك له فيه ومن أخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع فأخبر أنه انما يخاف عليهم الدنيا
وسماها زهرة فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقله بقائه وأن وراءه ثمرا خيرا وابقى منه
وقوله ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا
والانهماك عليها والمسرة فيها وذلك أن الماشيه يروقهها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فرما هلك حبطا
والحبط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض يقال حبط الرجل والدابة تحبط حبطا اذا أصابه
ذلك ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطا فنسب الحبطى كما يقال
السلمى فكذلك الشرهه في المال يقتله شرهه وحرصه فإن لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله أو يلم
وكثير من ارباب الأموال انما قتلتهم أموالهم فانهم شرهوا في جمعها واحتاج اليها غيرهم فلم يصلوا اليها
إلا بقتلهم أو ما يقاربه من اذلالهم وقهرهم
وقوله الا آكلة الخضر هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها
أكلت حتى اذا امتلأت خاصرتها وفي لفظ آخر امتدت خاصرتها وانما تمتد من امتلائها من الطعام وثنى
الخاصرتين لأنهما جانبا البطن وفي قوله استقبلت عين الشمس فتطلت وبالت ثلاث فوائد احداها انما لما
أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبله الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته الثانية انما أعرضت
عما يضرها من الشره في المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها
انضاج ما أكلته واخراجها الثالثة انما استفرغت بالبول والثلط ما جمعتها من المرعى في بطنها فاستراحت
بإخراجها ولو بقى فيها لقتلها فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة
وأول الحديث مثل الشره في جمع الدنيا الحريص على تحصيلها فمثاله مثال الدابة التي

(١٩٨/١)

حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطا أو يلم إذا لم يقتلها فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من
الهلاك فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد
الاحتمال فتنشق أمعاؤها وتهلك كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ويحبسها أو يصرفها في غير

حقها وآخر الحديث مثل للمقتصد بأكلة الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله ولم يحملها شرها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله بل أكلت بقدر حاجتها وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه وضرب بول الدابة وثلطها مثلا لإخراجه المال فى حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضرا به فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه ونجا من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول الثلط

وفى هذا الحديث اشارة الى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرتة وبين الاعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعا وتضمن الخير أيضا إرشاد المكثر من المال الى ما يحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه وهو الإخراج منه وانفاقه ولا يجبسه فيضره حبسه وبالله التوفيق فصل

المثال الثامن ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن سليمان بن يسار عن ميمونة قالت قال رسول الله لعمر بن العاص الدنيا خضرة حلوة فمن اتقى الله فيها وأصلح والا فهو كالأكل ولا يشبع وبين الناس فى ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع فى المشرق والآخر يغيب فى المغرب فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها وبخلاتها على استجلاء الصدور لها وبذلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت اليهم لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل ونحن بنو الدنيا ومنها نباتنا ... وما أنت منه فهو شئ محب وجعل الناس فيها قسمين أحدهما مصلح متقى فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها فى غير حقها فان لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه الى تحصيلها فكان كالذى يأكل ولا يشبع وهذا من أحسن الأمثلة فان المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة وذلك تابع لقدر الحاجة وليس المقصود منه ذاته ونفسه فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم

(١٩٩/١)

يشبع ولهذا قال الامام أحمد الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى وأخبر عن تفاوت الناس فى المترتين أعنى مترلة التقوى والاصلاح ومترلة الاكل والشره وأن بين الرجلين فى ذلك كما بين الكوكبين الغارب فى الأفق والطلع منه وبين ذلك منازل متفاوتة فصل

المثال التاسع ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله على السخلة الميتة فقال رسول الله أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا ومن هوأها ألقوها يا رسول الله قال فو الذى نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها قال الترمذى حديث حسن صحيح فلم يقتصر على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها وفى مسند الامام أحمد فى هذا الحديث فو الذى نفسى بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها فأكد ذلك بالقسم الصادق فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحق من سخله ميتة على أهلها

فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة وكونها سخله أهون عليهم من كونها شاة كبيرة لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدتها وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان والله المستعان فصل المثال العاشر مثلها مثل البحر الذي لا بدل للخق كلهم من ركوبه ليقطعوه الى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه الا في سفينة النجاة فارسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمرهم بعملها وركوبها وهي طاعته وطاعة رسله وعبادته وحده وإخلاص العمل له والتشمير للآخرة وإرادتها والسعى لها سعيها فهض الموفقون وركبوا السفينة ورجعوا عن خوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضا ولا سباحة وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلتها والركوب فيها وقالوا نخوض البحر فاذا عجزنا تطباه سباحة وهم أكثر أهل الدنيا فخاضوه فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الارض فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع وقد ضرب هذا المثل للدنيا

(٢٠٠/١)

والآخرة والقدر والأمر فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها فصل المثال الحادي عشر مثلها مثال اناء مملوء عسلا رآه الذباب فاقبل نحوه فبعضه قعد على حافة الاناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الاناء ووسطه فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به الا قليلا حتى هلك في وسطه فصل المثال الثاني عشر مثال حب قد نشر على وجه الارض وجعلت كل حبة في فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس في فخاخ فجاءت الطير فمتها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه في وسط الحب فأخذ حاجته ومضى ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب فما استتم اللقاط الا وهو يصيح من أخذة الفخ له فصل

المثال الثالث عشر كمثل رجل أوقد نارا عظيمة فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها ومن له علم بحالها جعل يستضيء ويستندفي بها من بعيد وقد أشار النبي الى هذا المثل بعينه في الحديث الذي رواه مالك بن اسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن عمر رضى الله عنه عن النبي قال اني ممسك بحجزكم عن النار وتتقاهون فيها تتقاهم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم وفي لفظ آخر مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاهن فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبون وتتقاهون فيها وهذا المثل مطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم الى الآخرة وهم يتقاهون في الدنيا تتقاهم الفراش فصل

المثال الرابع عشر مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهلبيهم فمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه فترلوا به وضربوا خيمهم وبنوا هنالك الدور والقصور فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته فقال اني رأيت بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم فاتبعوني أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه فأطاعته طائفة قليلة فصاح فيهم يا قوم النجاة النجاة أتيتم أتيتم وصاح السامعون له بأهلبيهم وأولادهم وعشائهم فقالوا كيف نرحل من

(٢٠١/١)

هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه فقال لهم الناصح لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه والا فهو مأخوذ وماله محتاح فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة وقال كل أحق لى أسوة بالقاعدين فهم أكثر منى مالا وأهلا فما أصابهم أصابنى معهم ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة وصبح الجيش أهل الوادى فقتلهم واجتاح أموالهم

وقد أشار النبى الى هذا المثل بعينه فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى بردة عن أبى موسى عن النبى قال انما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم اني رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان فالنجاة النجاة فأطاعه طائفة من قومه فأذلقوا و انطلقوا على مهلبهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق فصل

المثال الخامس عشر رجل هيا دارا وزينها ووضع فيها من جميع الالات ودعى الناس اليها فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير وقدم اليه طبقا من ذهب عليه لحم ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج اليه وأخدمه عبيده ومماليكه فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الالات والضيافة مدة مقامه فى الدار ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف يجلس حيث أجلسه ويأكل ما قدمه له ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه وما يفعله مع ضيوفه فدخل الدار كريما وتمتع فيها كريما وفارقها كريما ورب الدار غير ذام له وأما الاحق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الالات الى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وارادته فتخير المجلس لنفسه وجعل ينقل تلك الآلات الى مكان فى الدار يخبئها فيه وكلما قدم اليه ربها شيئا أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الاضياف ورب الدار يشاهد ما يصنع وكرمه يمنعه من اخراجه من داره حتى اذا ظن انه استبد بتلك الآلات وملك الدار

وتصرف فيها وفي آلاهما تصرف المالك الحقيقي واستوطنها واتخذها دارا له أرسل إليه مالکها عبیده فأخرجوه منها إخراجا عنيفا وسلبوه كل ما هو فيه ولم يصحبه من تلك الآلات شئ وحصل على مقت رب الدار وافترضه عنده وبين ممالیکه وحشمه وخدمه

فلیتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقیقة والله المستعان قال عبد الله بن مسعود رضی الله عنه كل أحد في هذه الدنيا ضیف وما له عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة

وفي الصحيحین عن أنس بن مالك رضی الله عنه قال مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب وقال ثم تصنعت له احسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا ابا طلحة أرايت لو أن قوما أعاروا عاریتهم أهل بيت فطلبوا عاریتهم ألهم أن يمنعوهم قال لا قالت فاحتسب ابنك قال فغضب قال تركتني تلطخت ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله فأخبره بما كان منها فقال رسول الله بارك الله لكما في ليلتكما وذكر الحديث فصل

المثال السادس عشر قوم سلكوا مفازة فاجأهم العطش فانتبهوا الى البحر وماؤه أمر شيء وأملحه فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته فشربوا منه فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شربا ازدادوا ظمأ حتى تقطعت أمعائهم وماتوا عطشا وعلم عقلاؤهم أنه مر مالخ وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمأه فنباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضا حلوة فحفروا فيها قليا فبيع لهم ماء عذب فرات فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر هلموا إلى الماء الفرات وكان منهم المستهزئ ومنهم المعرض الراضى بما هو فيه وكان الجيب واحدا بعد واحد وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله فصل

المثال السابع عشر مثل الانسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل

له ثلاثة اخوة فقضى له سفر بعيد طويل لا بد له منه فدعا إخوته الثلاثة وقال قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل وأحوج ما كنت اليكم الآن فقال أحدهم أنا كنت أخاك الى هذه الحال ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب وما عندي غير هذا فقال له لم تغن عني شيئا فقال للآخر ما عندك فقال كنت أخاك وصاحبك إلى الآن وأنا معك حتى أجهزك الى سفرك وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب فقال له أنا محتاج الى مرافقتك في مسيرى فقال لا سبيل لك الى ذلك فقال لم تغن عني شيئا فقال للثالث

ما عندك أنت فقال كنت صاحبك في صحتك ومريضك وأنا صاحبك الآن وصاحبك اذا ركبت راحلتك وصاحبك في مسيرك فإن سرت سرت معك وان نزلت نزلت معك واذا وصلت الى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك ابدا فقال ان كنت لأهون الاصحاب على وكنت أؤثر عليك صاحبك فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما

فالأول ماله والثاني أقاربه وعشيرته وأصحابه والثالث عمله وقد روى في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت رواه أبو جعفر العقيلي في كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعا وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع فصل المثل الثامن عشر وهو من أحسن الأمثلة ملك بنى دارا لم ير الرءاؤون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها ونصب لها طريقا وبعث داعيا يدعو الناس اليها وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة وألبست أنواع الحللى والحلل وممر الناس كلهم عليها وجعل لها أعوانا وخداما وجعل تحت يدها ويد أعوانها زادا للمارين السائرين الى الملك في تلك الطريق وقال لها ولأعوانها من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عنى وابتغى منك زادا يوصله الى فاخدميه وزوديه ولا تعوقيه عن سفره الى بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره ومن مد اليك عينيه ورضى بك وآثرك على وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش ومن يأكل منك فاخدمه به قليلا ثم استرده منه واسلبه اياه

(٢٠٤/١)

كله وسلطى عليه أتباعك وعبيدك وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجرا حتى تنقطع نفسه عليك حسرات فتأمل هذا المثل وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة والله المستعان وهذا المثل مأخوذ من الاثر المروى عن الله عز و جل يا دنيا اخدمى من خدمنى واستخدمى من خدمك فصل

المثل التاسع عشر ملك خط مدينة في أصح المواضع وأحسها هواء وأكثرها مياها وشق أنهارها وغرس أشجارها وقال لرعيته تسابقوا الى أحسن الأماكن فيها فمن سبق إلى مكان فهو له ومن تخلف سبقه الناس الى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه وعليها طيور عجيبة الأصوات وقال لهم لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها فعن قليل تجتث من أصلها ويذهب ظلها وينقطع ثمرها وتموت أطيارها وأما مدينة الملك فاكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدى وفيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها فخرجوا في

طلبها على وجوههم فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظماً فترلوا كلهم تحتها واستظلوا
بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطياريها فقبل لهم إنما نزلتم تحتها لتحملوا أنفسكم وتضمروا
مراكبكم للسباق فتهيئوا للركوب وكونوا على أهبة فإذا صاح النفير استدركتهم حلبة السباق فقال
الأكثرون كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسيل والفاكهة النضجة والدعة والراحة ونقتحم هذه
الحلبة في الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تنقطع فيها الأمعاء وكيف
نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ونترك ما نراه إلى ما لا نراه وذرة منقودة في اليد أولى
من ذرة موعودة بعد غد خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه
لعيش غائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه ونهض من كل ألف واحد وقالوا والله ما مقامنا هذا في
ظل زائل تحت شجرة قد دنى قلعها وانقطع ثمرها وموت أطياريها ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي
لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز وهل

(٢٠٥/١)

يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خبائه عليه ويتخذ وطنه خشية التأذى بالحر وبالبرد وهل
هذا إلا أسفه السفه فالسباق السباق والبدار البدار
حكم المنية في البرية جارى ... ما هذه الدنيا بدار قرار
اقضوا مآربكم سراعاً إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا ... أن تسترد فإنهم عوارى
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل ... أنتم على سفر بهذى الدار
من يرجو طيب العيش فيها إنما ... بينى الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها ... في دار أهل السبق أكرم دار
فاقتحموا حلقة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم في سيرهم
لومة لائم والمتخلف في ظل الشجرة نائم فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة
وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها وانقطع مشربها فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها
في حر السموم يتقلبون وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون أحرقها قيمها فصارت هي وما
حولها نارا تلظى وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها فقالوا أين الركب الذين
استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه فقبل لهم ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم فأروهم من البعد في
قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد
تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل هذا جزاء المتخلفين وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم

يظلمون فصل

المثال العشرون ما مثلها به النبي من الثوب الذى شق وبقي معلقا بخيط فى آخره فما بقاء ذلك الخيط قال ابن أبي الدنيا حدثني الفضل بن جعفر حدثنا وهب بن حماد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله مثل هذه الدنيا مثل ثوب

(٢٠٦/١)

شق من أوله الى آخره فبقي معلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وان أردت لهذا المثل زيادة ايضاح فانظر الى ما رواه أحمد فى مسنده من حديث أبي نظرة عن أبي سعيد قال صلى بنا رسول الله العصر ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئا قبل قيام الساعة الا اخبر به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه وجعل الناس يلتفتون الى الشمس هل بقي منها شئ فقال ألا انه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن حكيم عن ابن عمر قال خرج علينا رسول الله والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا الا مثل ما بقي من يومنا هذا فيما مضى منه وروى ابن أبي الدنيا عن ابراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله خطب عند مغرب الشمس فقال ما بقي من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه

فالدنيا كلها كيوم واحد بعث رسول الله فى آخره قبل غروب شمسه بيسير وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما عنه بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى وكان بعض السلف يقول تصبروا فإنما هي أيام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت وانه قد نعت اليك أنفسكم والموت حبس لا بد منه والله بالمرصاد وانما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة فصل

المثال الحادى والعشرون مثال الدنيا كحوض كبير ملئ ماء وجعل موردا للأنام والانعام فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه الا كدر فى أسفله قد بالت فيه الدواب وخاصته الناس والأنعام كما روى مسلم فى

(٢٠٧/١)

صحيحه عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم فقال في خطبته إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صباية كصباية الاناء يتصاها صاحبها وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم وقال عبد الله بن مسعود إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلا فما بقي منها إلا قليل من قليل ومثل ما بقي منها كالشعب شرب صفوه وبقي كدره الشعب الغدير فصل

المثال الثاني والعشرون قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت فيها الأحداث والآفات وطرقها الخن وأغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة في محل لا يطرقه آفة ولا عاهة وعزم على تخريب المدينة الأولى فأرسل إلى سكانها فنودي فيهم بالرحيل بعد ثلاث ولا يتخلف منهم أحد وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما في تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر والآلى والذهب والفضة وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلاح للملوك وأرسل اليهم الأدلاء وآلات النقل ونهج لهم الطريق ونصب لهم الاعلام وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم في اثر بعض فانقسموا فرقا فالاقبلون علموا قصر مدة مقامهم في تلك المدينة وتيقنوا أنهم ان لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله الى مدينة الملك والا فانهم ذلك فلم يقدرُوا عليه فرأوا غبنا أن يقطعوا تلك المدة في جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل فسألوا عن خير ما في المدينة وأنفسه وأحبه الى الملك وأنفعه في مدينته فلما عرفوه لم يلتفوا الى مادونه ورأوا أن أحدهم اذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب الى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها فكان همهم في تحصيل ما هو أحب الى الملك وأنفس عنده ولو قل في رأى العين وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الاحمال الخملة وتنافسوا في كثرتها وهم على مراتب فمنهم من أحماله أثمان ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر همهم وما يليق بهم لكن همهم مصروفة الى تعبئة الاحمال والانتقال من المدينة وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور في تلك المدينة والاشتغال بطبيعتها ولذا تم ونزهاها وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئا فإن شاركتونا في عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها والا لم

(٢٠٨/١)

نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع فوقع الحرب بينهم فقاتلوا السائرين فعمدوا الى أكل أموالهم وأهلهم وما نقموا منهم الا بسيرهم الى دار الملك واجابة داعيه والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها وأقبلت فرقة أخرى على التتره والبطالة والراحة والدعة وقالوا لا نتعب أنفسنا في عمارتها ولا نقل منها ولا نعارض من أراد النقلة ولا نحاربهم ولا نعاونهم وكان للملك فيها قصر فيه حريم له وقد أحاط عليه سورا وأقام عليه حرسا ومنع أهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه بابا يدخلون منه فغدوا على جدرانها فنقبوها ووصلوا الى حريمه فأفسدوهم ونالوا منهم ما أسخط الملك

وأغضبه وشق عليه ولم يقتصر على ذلك حتى دعوا غيرهم الى افساد حريمه والنيل منهم فبينما هم على تلك الحال واذا بالنفير قد صاح فيهم كله فلم يمكن أحد منهم من التخلف فحملوا على تلك الحال وأحضروا بين يدي الملك فاستعرضهم واحدا واحدا وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه ورد منها مالا يصلح له وضرب به وجوه أصحابه وقابل من نقب حماته وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون فسألوا الرجعة الى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار فقال هيهات قد خربت المدينة خرابا لا تعمر بعده أبدا وليس بعدها الا المدينة التي لا تخرب أبدا فصل وقد مثلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد ومثلت بدار لها بابان باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون وضربتها الموت ومثلت بطعام مسموم لذيد الطعم طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه ومثلت بالطعام في المعدة اذا أخذت الاعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ ولا راحة لصاحبه الا في خروجه كما أشار اليه النبي في آكلة الخضر وقد تقدم ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على

(٢٠٩/١)

عينين فتنت بهما الناس وهي تدعو الناس إلى مزلها فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وألقتهم في الحفر وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديما وحديثا والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات وهم ينافسون في مصارعهم وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ويكفي في تمثيلها ما مثلها الله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها

قالوا وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها قالوا ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في الله والدار الآخرة أبدا ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن ولا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا قالوا ويكفي أن رسول الله عرضت عليه مفاتيح كنوزها ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما له عند الله شيئا فاختر جوع يوم وشبع يوم ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله كما تقدم ذكره

قالوا وقد انقسم الناس بعد رسول الله اربعة أقسام قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم كالصديق ومن سلك سبيله وقسم أرادهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله وقسم أرادوا الدنيا وأرادهم

كخلفاء بنى أمية ومن سلك سبيلهم حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها ارادته ولم يردّها وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده وأسكنها في قلبه وامتنحه بجمعها ولا يخفى أن خير الاقسام القسم الاول والثاني انما فضل لأنه لم يردّها فالتحق بالاول

قالوا وقد سأل رجل رسول الله أن يدلّه على عمل اذا فعله أحبه الله وأحبه الناس فقال له ازهد في الدنيا بحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس فلو كان الغنى أفضل لدله عليه قالوا وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه فعلم أن الزهد

(٢١٠/١)

فيها عند الله بمكان قالوا وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد فهذا الزاني المحسن عقوبته الرجم وعقوبة من لم يحسن الجلد والتغريب وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد

قالوا وكيف يستوى عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسوته وخضوعه وتجرع مرارته وتحمل أعبائه ومشاقه وعزة الغنى ولذته وصولته والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى وأين أجر مشقة المجاهدين إلى أجر عبادة القاعدين في الامن والدعة والراحة

قالوا وكيف يستوى أمران أحدهما حفت به الجنة والثاني حفت به النار فإن أصل الشهوات من قبل المال وأصل المكاره من قبل الفقر قالوا والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر وكل واحد منها يكفر ما يقاومه من السيئات وذلك زيادة على أجره بأعمال البر فقد شارك الاغنياء بأعمال البر وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته وما امتازوا به عليه من الانفاق والصدقة والنفع المتعدي فله سبيل الى لحاقهم فيه وله مثل أجورهم وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون فيقول لو أن لى مالا لعملت بأعمالهم فهو بنيته وأجرهما سواء كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الامام أحمد والترمذى من حديث أبي كبشه الانمارى قالوا والفقير في الدنيا بمنزلة المسجون اذ هو ممنوع عن الوصول الى شهواته وملاذها والغنى منخلص من هذا السجن وقد قال النبي الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فالغنى ان لم يسجن نفسه عن دواعي الغنى وطغيانه وأرسلها في ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له فانما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذي هو في سجن فقره

قالوا وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طبيائته في الحياة الدنيا وانه لخرى أن يكون عوضا عن طبيات

الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه بخلاف من استكمل طيباته في الآخرة لما منع منها في الدنيا
وأتى رسول الله بسويق لوز فأبى أن يشربه وقال هذا شراب المترفين

(٢١١/١)

قالوا وقد سئل الحسن البصري فقيل له رجلان أحدهما تارك للدنيا والآخر يكتسبها ويتصدق بها فقال
التارك لها أحب الى قالوا وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة عن رجلين مر أحدهما ببلبة ذهب
فتخطاها ولم يلتفت اليها ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها فقال الذي لم يلتفت اليها أفضل ويدل على
هذا أن رسول الله مر بها ولم يلتفت اليها ولو أخذها لأنفقها في سبيل الله
قالوا والفقير الفقيه في فقره يمكنه لحاق الغنى في جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله فيساويه في أجره ويتميز
عنه بعدم الحساب بعدم المال فساواه

(٢١٢/١)

بنوابه ويخلص من حسابه كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام وتميز عنه بنواب صبره على ألم
الفقر وخصاصته
قال الإمام أحمد حدثنا عبادة بن مسلم حدثني يونس بن خباب عن أبي البحتري الطائي عن أبي كبشة
قال سمعت رسول الله يقول ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه فأما الثلاث التي أقسم عليهن
فإنه ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزا ولا يفتح
عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر وأما الذي أحدثكم حديثا فاحفظوه فإنه قال إنما الدنيا لأربعة
نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم فيه الله حقا فهذا بأفضل المنازل
عند الله وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول لو كان لي مال عملت فيه بعمل فلان قال فأجرهما
سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يتخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه
ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل عند الله وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو كان لي
مال لفعلت بفعل فلان قال فهو بنيته ووزرهما سواء فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته
والغنى هناك انما نقص بتخلفه عن العمل والفقير انما نقص بسوء نيته فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف
ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ولا نفعه فقره مع سوء نيته
قالوا ففي هذا بيان كان شاف في المسألة حاكم بين الفريقين وبالله التوفيق

الباب الرابع والعشرون في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة

والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار ونحن نحاكمكم الى ما حاكمتمونا اليه ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه ونضع أدلتنا وأدلتكم في ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول ولكن اخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشجعهم عليها وأبعدهم من الفقر والصبر من كل مظهر للفقر مبطن للحرص غافل عن ربه متبع لهواه مفرط في أمر معاده قد جعل زى الفقر صناعة وتحلى بما هو أبعد الناس منه بضاعة أو فقير حاجة فقره اضطرارا لا اختيارا فزهده زهد افلاس لا زهد رغبة في الله والدار الآخرة أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله غير راض عن ربه في فقره بل ان أعطى رضى وان منع سخط شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها وهو أفقر الناس فيها فهو أرغب شئ فيها وهى أزهد شئ فيه وأخرجوا من بيننا ذى الثروة الجموع المتنوع المتكاثر بماله المستأثر به الذى عض عليه بناجذه وثنى عليه خناصره يفرح بزيادته ويأسى على نقصانه فقلبه به مشغوف وهو على تحصيله ملهوف ان عرض سوق الانفاق والبذل أعطى قليلا وأكدى وان دعى الى الايثار أمعن فى الهرب جدا وأخلصونا واخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا الى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ونافسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم فقلوبهم عاكفة عليه وهمتهم الى المسابقة اليه ينظر غنيهم الى فقيرهم فإذا رآه قد سبقه الى عمل صالح شمر الى اللحاق به وينظر فقيرهم الى غنيهم فإذا رآه قد فاتته يانفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه فهؤلاء اخواننا الذين تكلم

الناس فى التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العذاب وأسفل منه والله المستعان

إذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه فى كتابه أعمالا وأثنى على أصحابها ولا تحصل الا بالغنى كالزكاة والانفاق فى وجوه البر والجهاد فى سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة واعانة المحاربين وفك الرقاب والاطعام فى زمن المسغبة وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى

ونصره على فقره ومخمصته وأين يقع صبره من نفع الغنى بماله في نصره دين الله واعلاء كلمته وكسر أعدائه وأين يقع صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصره الاسلام حين قال النبي ما نفعني مال احد ما نفعني مال أبي بكر وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله في بعضها ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ثم قال غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت أو كما قال وإذا تأملت القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين وقد شهد رسول الله بأن اليد العليا خير من اليد السفلى وفسر اليد العليا بالمعطية والسفلى بالمسائلة وقد عدد الله سبحانه على رسوله من نعمه أن أغناه بعد فقره وكان غناه هو الحالة التي نقله اليها وفقره الحالة التي نقله منها وهو سبحانه كان ينقله من الشيء الى ما هو خير منه وقد قيل في قوله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى ان المراد به الحالتان أى كل حالة خير لك مما قبلها ولهذا أعقبه بقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى فهذا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة

قالوا والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة والله يخص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم قالوا والاغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم اياهم بالصدقة عليهم والاحسان عليهم واعانتهم على طاعتهم فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة الى نصيبهم من أجر الانفاق وطاعتهم التي تخصهم كما في صحيح

(٢١٥/١)

ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي رضى الله عنه عن النبي وذكر شهر رمضان فقال من فطر فيه صائما كان مغفورا لذنوبه وعتق رقبتة من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء فقد جاز الغنى الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذى فطره قالوا ولو لم يكن للغنى الشاكر الا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الاعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر النظر بن شمیل عن قررة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال ذكر أن الاعمال الصالحة تتباهى فيقول الصدقة أنا أفضلكم قالوا والصدقة وقاية بين العبد وبين النار والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن رسول الله قال ان الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور وانما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس قال يزيد وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم الا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة وفي حديث معاذ عن النبي والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار

وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يخطى الصدقة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي قال إذا تصدق العبد من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً أخذها الله بيمينه فبرئها لأحدهم كما يرى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم وفي لفظ البيهقي في هذا الحديث حتى إن النمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد وقال محمد بن المنكدر من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان وقد روى مرفوعاً من غير وجه وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمأه فكيف بمن سقى العطاش وأشبع الجياع وكسى العراة من المسلمين وقد قال رسول الله اتقوا النار ولو بشق تمرة قال فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة فجعل الكلم الطيب عوضاً عن

(٢١٦/١)

الصدقة لمن لا يقدر عليها قالوا وابن لذة الصدقة والاحسان وتفريجهما القلب وتقويتهما إياه وما يلقي الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم وادخال المسرات عليهم من أجر الصبر على الفقر نعم إن له لأجراً عظيماً لكن الاجر درجات عند الله قالوا وأيضاً فالصدقة والاحسان والاعطاء وصف الرب تعالى وأحب عباده إليه من اتصف بذلك كما قال النبي الخلق عيال الله فأحب الخلق إليه انفعهم لعياله قالوا وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء فبدأ بالمصدقين أولهم فقال تعالى إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات قالوا وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله فمنها أنها تقى مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم قال إبراهيم النخعي وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل المظلوم وتطفئ الخطيئة وتحفظ المال وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به كما أن البخل سوء الظن بالله وترغم الشيطان يعني الصدقة وتركى النفس وتنميتها وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه وتستتر عليه كل عيب كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة وتزيد في العمر وتستجلب أذعية الناس ومحبتهم وتدفع عن صاحبها عذاب القبر وتكون عليه ظلاً يوم القيامة وتشفع له عند الله وتكون عليه شداً الدنيا والآخرة وتدعوه إلى سائر أعمال البر فلا تستعصى عليه وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك قالوا ولو لم يكن في النفع والاحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ويجب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم فصفته الغنى والجود ويجب الغنى الجواد قالوا ويكفى في

فضل النفع المتعدى بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل فمن كسى مؤمنا كساه الله من حلل الجنة
ومن أشبع جائعا أشبعه الله من ثمار الجنة ومن سقى ظمأنا سقاه الله من شراب الجنة ومن أعتق

(٢١٧/١)

رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار حتى فرجه بفرجه ومن يسر على معسر يسر الله عليه في
الدنيا والآخرة ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله
في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه قالوا ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر ولكن أين تقع من
هذه الفضائل وقد جعل الله لكل شيء قدرا

قالوا وقد جعل رسول الله الطاعم الشاكر بمثلة الصائم الصابر ومعلوم أنه اذا تعدى شكره الى
الإحسان الى الغير ازداد أخرى فان الشكر يتضاعف الى ما لا نهاية له بخلاف الصبر فان له حدا يقف
عليه

وهذا دليل مستقل في المسألة يوضحه أن الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أعلى من الصابر فاذا كان
الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أفضل من الصابر كان أفضل من الصابر في درجتين
قالوا وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سالم عن ابيه قال قال رسول الله لا حسد الا في اثنتين
رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل والنهار
فجعل الغنى مع الانفاق بمثلة القرآن مع القيام به قالوا وقد صرح في حديث أبي كبشة الأنمارى أن
صاحب المال إذا عمل في ماله بعلمه واتقى فيه ربه ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله فهو في أعلى
المنازل عند الله وهذا تصريح في تفضيله وجعل الفقير الصادق اذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك
بلسانه ثانيا وانه بنيتة وقوله وأجرهما سواء فإن كلا منهما نوى خيرا وعمل ما يقدر عليه فالغنى نواه
ونفذه بعلمه والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه فاستويا في الاجر من هذه الجهة ولا يلزم من استوائهما في
أصل الاجر استوائهما في كيفيته وتفصيله فإن الأجر على العمل والنيه له مزية على الاجر على مجرد
النيه التى قارنهما القول ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وان أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر
أعمال الحج مع النيه له مزية عليه

واذا اردت فهم هذا فتأمل قول النبى من سأل الله الشهادة صادقا من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وان
مات على فراشه ولا ريب أن ما حصل للمقتول في سبيل

(٢١٨/١)

الله من ثواب الشهادة تزيد كفيته وصفاته على ما حصل لناوى ذلك اذا مات على فراشه وان بلغ منزلة الشهيد فيها هنا أجران أجر وقرب فان استويا في اصل الاجر لكن الاعمال التي قام بها العامل تقتضى أثرا زائدا وقربا خاصا وهو فضل الله يؤتية من يشاء وقد قال اذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا هذا القاتل فما بال المقتول قال انه اراد قتل صاحبه فاستويا في دخول النار ولا يلزم استواؤهما في الدرجة ومقدار العذاب فاعط الفاظ رسول الله حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد

يوضح هذا أن فقراء المهاجرين شكوا الى رسول الله وقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالاجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتصرون ويجهدون ويتصدقون قال أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحدا أفضل منكم الا من صنع مثل ما صنعتم قالوا بلى يا رسول الله قال تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله فقالوا سمع اخواننا أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ذلك فضل الله يؤتية من يشاء فلو كانوا يلحقون بهم في مقدار الاجر بمجرد النية لقال لهم أنووا أن تفعلوا مثل فعلهم ففعلوا مثل أجرهم فلما أعاضهم عما فاقهم من ثواب الصدقة والعق والحج والاعتماد بما يحصل نظيره بالذكر علم أن الاغنياء قد فضلوه بالانفاق فلما شاركهم في الذكر بقيت مزية الانفاق فشكوا الى رسول الله أن الامتياز لم يزل وانهم قد ساوونا في الذكر كما ساوونا في الصوم والصلاة فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتية من يشاء فلو كان لهم سبيل الى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها

قالت الفقراء هذا الحديث حجة لنا اذا فهم على الحقيقة وذلك أن معناه انهم وان كانوا قد ساوواكم في الايمان والاسلام والصلاة والصيام ثم فضلواكم في الانفاق ففي التكبير والتسبيح والتلهيل ما يلحقكم بدرجتهم وقد ساوواهم أيضا بحسن النية إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم وفي بعض ألفاظ هذا الحديث ان أخذتم به سبقتهم من قبلكم ولم يلحقكم من بعدكم وهذا يدل على أن الاغنياء لا يلحقونهم

(٢١٩/١)

وان قالوا مثل قولهم وقوله ذلك فضل الله يؤتية من يشاء معناه ان فضل الله ليس مقصورا عليكم دونهم فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم اياه اذا عملوا مثلكم أيضا فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص فوضعتموه في غير موضعه وانما معناه العموم والشمول وان فضله عام شامل للأغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم فأين في هذا الحديث التفضيل لكم علينا قالوا ويحتمل قوله ذلك فضل الله ثلاثة أمور أحدها سبقهم لكم بالانفاق والثاني مساواتكم لهم في فضيلة

الذكر فلم تختصوا به دونهم والثالث سبقكم لهم الى الجنة بنصف يوم وهذا وان كان لا ذكر له في هذه الرواية فهو مذكور في بعض طرقه قال البزار في مسنده حدثنا الوليد بن عمر حدثنا محمد ابن الزبير قال حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله ما فضل به أغنياؤهم فقالوا يا رسول الله اخواننا صدقوا تصديقنا وآمنوا إيماننا وصاموا صيامنا ولهم أموال يتصدقون منها ويصلون منها الرحم وينفقونها في سبيل الله ونحن مساكين لا نقدر على ذلك فقال ألا أخبركم بشئ اذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم قولوا الله اكبر في كل صلاة احدى عشرة مرة والحمد لله مثل ذلك ولا اله الا الله مثل ذلك وسبحان الله مثل ذلك تذكرون مثل فضلهم ففعلوا فذكروا ذلك للأغنياء ففعلوا مثل ما ذلك فرجع الفقراء الى رسول الله فذكروا ذلك له فقالوا هؤلاء اخواننا فعلموا مثل نقول فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يا معشر الفقراء ألا أبشركم ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام وتلا موسى ابن عبيدة وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون

قالوا فهذا خبر واحد وكلام متصل ذكره بشاره لهم عندما ذكروا مساواة الاغنياء لهم في القول المذكور فأشبهه أن يرجع الفضل الى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهذه البشارة مخصصون فكان السبق لهم دون غيرهم وان ساووهم في القول وساووهم في الانفاق بالنيه كما في حديث أبي كبشة المتقدم وحصلت لهم مزية الفقر

قالت الاغنياء لقد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده الى جهتكم وهو صريح

(٢٢٠/١)

في تفضيل هذا الحديث لمن انصف فإن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء خرج جوابا للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساووهم في الذكر كما ساووهم في الصلاة والصوم والايان وبقيت مزية الانفاق ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه فقال لهم حينئذ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا صريح جدا في مقصوده فلما انكسر القوم بتحقيق السبق بالانفاق الذي عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم وأن هذا السبق في مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والانفاق ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم في المترلة والدرجة فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب من الموقوفين للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة قالوا وقد سمى سبحانه المال خيرا في غير موضع من كتابه كقوله تعالى كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية وقوله انه حب الخير لشديد وأخبر رسول الله أن الخير لا يأتي الا بالخير كما تقدم وانما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نفسه

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها ونهى أن يأتي السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم ومدحه النبي بقوله نعم المال الصالح مع المرء الصالح وقال سعيد بن المسيب لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس ويصل به رحمه ويعطي حقه وقال أبو اسحاق السبيعي كانوا يرون السعة عوناً على الدين وقال محمد ابن المنكدر نعم العون على التقى الغنى وقال سفيان الثوري المال في زماننا هذا سلاح المؤمن وقال يوسف بن سباط ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان والخير كالحيل لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر قالوا وقد جعل الله سبحانه المال سبباً لحفظ البدن وحفظه سبب لحفظ النفس التي هي محل معرفة الله والايمان به وتصديق رسله ومحبتة والانابة اليه فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة وانما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة فيذم منه ما يتوسل

(٢٢١/١)

به صاحبه الى المقاصد الفاسدة أو شغله عن المقاصد الحمودة فالذم للجاعل لا للمجعول قال النبي تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم فذم عبدهما دونهما قال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن يزيد بن ميسرة قال كان رجل ممن مضى جمع مالا فأوعى ثم أقبل على نفسه وهو في أهله فقال أنعم سنين فأتاه ملك الموت فقرع الباب في صورة مسكين فخرجوا اليه فقال ادعوا لي صاحب الدار فقالوا يخرج سيدنا الى مثلك ثم مكث قليلاً ثم عاد فقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال أخبروه أني ملك الموت فلما سمع سيدهم قعد فرعاً وقال لينوا له الكلام قالوا ما تريد غير سيدنا بارك الله فيك قال لا فدخل عليه فقال قم فأوص ما كنت موصياً فإني قابض نفسك قبل أن أخرج قال فصرخ أهله وبكوا ثم قال افتحو الصناديق وافتحوا أوعية المال ففتحوها جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسبه يقول لعنت من مال أنت الذي أنسيتني ربي وشغلتنى عن العمل لآخرتى حتى بلغني أجلى فتكلم المال فقال لا تسبني ألم تكن وضيعاً في أعين الناس فرفعتك ألم ير عليك من أثرى وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون ألم تكن تنفقني في سبيل الحبث فلا أتعاصى ولو أنفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك وأنت ألوم مني إنما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق يائس فهكذا يقول المال فاحذروا وفي أثر يقول الله تبارك وتعالى أموالنا رجعت إلينا سعد بها من سعد وشقى بها من شقى قالوا ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات وبه قام سوق بر الحج والجهاد وبه حصل الانفاق الواجب والمستحب وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها وبه يتوصل الى

النكاح الذى هو أفضل من التخلّى لنوافل العبادة وعليه قام سوق المروءة وبه ظهرت صفة الجود
والسخاء وبه وقيت الاعراض وبه اكتسبت الاخوان والاصدقاء وبه توصل الابرار الى الدرجات العلى
ومرافقة الذين أنعم الله عليهم فهو مرقاة يصعد بها الى أعلى غرف

(٢٢٢/١)

الجنة ويهبط منها إلى أسفل سافلين وهو مقيم مجد الماجد كان بعض السلف يقول لا مجد إلا بفعال ولا
فعال إلا بمال وكان بعضهم يقول اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى وهو من أسباب رضا
الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه
وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به الابرص والاقرع والاعمى قال به الاعمى رضا ربه ونالا به سخطه
والجهاد ذروة سنام العمل وتارة يكون بالنفس وتارة يكون بالمال وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع
وبأى شئ فضل عثمان على على وعلى أكثر جهادا بنفسه واسبق إسلاما من عثمان
وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر وتأثيرهما في الدين أعظم
من تأثير أهل الصفة وقد نهي رسول الله عن إضاعته وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من
تركهم فقراء وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغي بها وجه الله إلا ازداد بها درجة ورفعة وقد
استعاذ رسول الله من الفقر وقرنه بالكفر فقال اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر فإن الخير نوعان
خير الآخرة والكفر مضاده وخير الدنيا والفقر مضاده فالفقر سبب عذاب الدنيا والكفر سبب عذاب
الآخرة والله سبحانه وتعالى جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء وأخذها وظيفة الفقراء وفرق بين اليدين
شرعا وقدرًا وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ وجعل الزكاة أوساخ المال ولذلك حرمها على أطيب
خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفًا ورفعًا لأقدارهم
ونحن لا ننكر أن رسول الله كان فقيرًا ثم أغناه الله والله فتح عليه وخوله ووسع عليه وكان يدخر لأهله
قوت سنة ويعطى العطايا التي لم يعطها أحد غيره وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ومات عن فذك
والنضير وأموال خصه الله بها وقال تعالى ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول فتره ربه
سبحانه عن الفقر الذى يسوغ الصدقة وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأحله وأفضله وهو ما أخذه
بظل رحمه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلما وعدوانا فإنه خلق المال ليستعان به
على طاعته وهو بأيدي الكفار والفجار

(٢٢٣/١)

ظلما وعدوانا فإذا رجع الى أوليائه وأهل طاعته فاء اليهم ما خلق لهم ولكن لم يكن غنى رسول الله
وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملأهم فإن غناهم بالشيء وغناه عن الشيء وهو الغنى العالى وملكهم
ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم وهو انما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف الا بأمر
سيده

وقد اختلف الفقهاء فى الفئ هل كان ملكا للنبي على قولين هما روايتان عن أحمد والتحقيق أن ملكه له
كان نوعا آخر من الملك وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال والله لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا انما
أنا قاسم اضع حيث امرت ذلك من كمال مرتبة عبوديته ولأجل ذلك لم يورث فإنه عبد محض من كل
وجه لربه عز وجل والعبد لا مال له فيورث عنه فجمع الله له سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف
أنواع الفقر فكمّل له مراتب الكمال فليست احدى الطائفتين بأحق به من الأخرى فكان فى فقره أصبر
خلق الله وأشكرهم وكذلك فى غناه والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء وأى غنى أعظم من غنى من
عرضت عليه مفاتيح كنوز الارض وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً وخير بين أن يكون ملكاً نبياً
وبين أن يكون عبداً نبياً فاختار أن يكون عبداً نبياً ومع هذا فجيت اليه أموال جزيرة العرب واليمن
فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشئ بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال من ترك مالا فلورثته ومن ترك
كلا فألى وعلى فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة كما نزهه أن
يكون من جملة الاغنياء الذين أغناهم بالاموال الموروثة بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى
ووسع عليه غاية السعة فأنفق غاية الانفاق وأعطى أجل العطايا ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقارا ولا
ارضا ولا ترك شاة ولا بعيرا ولا عبدا ولا أمة ولا دينارا ولا درهما
فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله لم يمكنه ذلك الا بعد أن يفعل فعله كما أن الفقير الصابر اذا احتج بحاله لم
يمكنه ذلك الا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختيارا لا اضطرارا فرسول الله وفى كل مرتبة من مرتبتي
الفقر والغنى

(٢٢٤/١)

حقها وعبوديتها وأيضا فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء فما نالت أمته الغنى إلا به وأغنى الناس من صار
غيره به غنيا

قال على بن أبى رباح اللخمي كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصارى وهو يومئذ على مصر وعبد الله بن
عمرو بن العاص جالس معه فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبى طالب فقال لو أن ابا طالب رأى ما نحن
فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير فقال عبد الله بن عمرو ويومئذ كان
سيدا كريما قد جاء بخير فقال مسلمة ألم يقل الله تعالى ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك

عائلا فأغنى فقال عبد الله بن عمرو أما اليتيم فقد كان يتيما من أبويه وأما لعيلة فكل ما كان بأيدي العرب الى القله يقول إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين اسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشئ ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنها قال وذلك معنى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأتمته وهو يحذر منها وتعرض عليه فيأبأها وانما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أتمته من ملك كسرى وقصر ودخول الناس في الاسلام وظهور الدين إذا كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه

وروى سفيان الثوري عن الازاعي عن اسماعيل بن عبد الله بن عباس عن النبي قال رأيت ما هو مفتوح بعدى كفرا كفرا فسرني ذلك فتزلت والضحي والليل الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى قال اعطى ألف قصر من لؤلؤ تراها المسك في كل قصر ما ينبغي له قالوا وما ذكرتم من الزهد في الدنيا والتقلل منها فالزهد لا ينافي الغنى بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير فإن الغنى زهد عن قدرة والفقير عن عجز وبينهما بعد بعيد وقد كان رسول الله في حال غناه أزهد الخلق وكذلك ابراهيم الخليل كان كثير المال وهو أزهد الناس في الدنيا وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابي ذر عن النبي قال الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما

(٢٢٥/١)

في يديك أوثق بما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب في ثوابها لو أنها بقيت لك

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهدا قال نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت وقال بعض السلف الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره وهذا من أحسن الحدود حقيقة مركبة من الصبر والشكر فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره فكان شكره وصبره مغلوبين فإن هذا ليس بزاهد وسمعت شيخ الاسلام يقول الزهد ترك ما لا ينفعك والورع ترك ما يضرك فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها ويقابله الشح والحرص وهو ثلاثة أقسام زهد في الحرام وزهد في الشهوات والمكروهات وزهد في الفضلات فالاول فرض والثاني فضل والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة وان قويت التحق بالاول والا فبالثالث وقد يكون الثالث واجبا بمعنى انه لا بد منه وذلك لمن

شمر الى الله والدار الآخرة فزهد الفضلة يكون ضرورة فإن إرادة الدنيا قاذحة في إرادة الآخرة ولا يصح للعبد مقام الارادة حتى يفرد طلبه وارادته ومطلوبه فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب أما توحيد المطلوب أن لا يتعلق طلبه وارادته بغير الله وما يقرب اليه ويدني منه وأما توحيده في الطلب أن يستأصل الطلب والارادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى وتسكن الارادة في أقطار النفس فتملأها فلا يدع فيها فضلا لغير الانجذاب الى جانب الحق جل جلاله فتتمحض الارادة له ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة فإنه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصدد وقطع مواد طمعه اللاتي هي من أفسد شئ للقلب بل اصل المعاصي والفساد والفجور كله من الطمع فالزهد يقطع مواده ويفرغ البال ويملا القلب ويستحث الجوارح ويذهب الوحشة التي بين العبد وبين ربه ويجلب الانس به ويقوى الرغبة في ثوابه إن ضعف عن الرغبة في قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبتة فالزاهد أرواح

(٢٢٦/١)

الناس بدنا وقلبا فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له في إرادة الله والدار الآخرة بحيث فرغ قلبه لله وجعل حرصه على التقرب إليه وشحه على وقته أن يضيع منه شئ في غير ما هو أَرْضَى الله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشا وقرهم عينا وأطيبهم نفسا وأفرحهم قلبا فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل الهم والغم والحزن فهي عذاب حاضر يؤدي الى عذاب منتظر أشد منه وتفوت على العبد من النعم اضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا

قال الامام أحمد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا يعنى بن مسلم عن ابراهيم يعنى بن ميسرة عن طاووس قال قال رسول الله ان الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن وأن الرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن وانما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين احدهما الرغبة في الدنيا والحرص عليها والثاني التقصير في أعمال البر والطاعة

قال عبد الله بن أحمد حدثني بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن الحارث قال حدثنا أبو بكر بن عياش عن ليث عن الحكم قال قال رسول الله اذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله عز وجل بالهم وكما أن الرغبة في الدنيا أصل المعاصي الظاهرة فهي أصل معاصي القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كونها في اليد وامتلاء القلب بها ينافي الشكر ورأس الشكر تفرغ القلب منها وامتداد المال كامتداد العمر والجاه فخيركم في الدنيا من طال عمره وحسن عمله فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره فنعيم المرء وماله وجاهه اما أن يرفعه درجات

واما أن يضعه درجات

وسر المسألة أن طريق الفقر والتقليل طريق سلامة مع الصبر وطريق الغنى والسعة في الغالب طريق عطب

فإن اتقى الله في ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله وليس مقصورا على الزكاة بل من حقه اشباع الجائع وكسوة العارى واغاثة الملهوف واعانة المحتاج والمضطر فطريقه طريق غنيمة وهى فوق السلامة فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه فهو يثاب على حسن صبره على حبسه

(٢٢٧/١)

وأما الغنى فخطره عظيم في جمعه وكسبه وصرفه فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه في حقه كان أنفع له فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس والغنى المنفق في وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد ولهذا جعله النبي قرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها فهو أحد المحسودين الذين لا ثالث لهما والجهلة يغبطون المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه ويجعلونه أولى بالحسد من المنفق والعالم المعلم

فإن قيل فأيهما افضل من يختار الغنى المتصدق والانفاق في وجوه البر أم من يختار الفقر والتقليل ليعبد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختباره واحدا من الامرين قيل هذا موضع اختلاف فيه حال السلف الصالح فمنهم من اختار المال للجهاد به والانفاق وصرفه في وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة وكان قيس بن سعد يقول اللهم انى من عبادك الذين لا يصلحهم الا الغنى ومنهم من اختار الفقر والتقليل كأبي ذر وجماعة من الصحابة معه وهؤلاء نظروا الى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها وأولئك نظروا الى مصالح الانفاق وثمراته العاجلة والآجلة والفرقة الثالثة لم تختار شيئا بل كان اختيارها ما اختاره الله لها وكذلك اختيار طول البقاء في الدنيا لاقامة دين الله وعبادته فطائفة اختارته وتمنته وطائفة أحببت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا وطائفة ثالثة لم تختار هذا ولا ذاك بل اختارت ما يختاره الله لها وكان اختيارهم معلقا بما يريد الله دون مراد معين منهم وهى حال الصديق رضى الله عنه فإنهم قالوا له في مرض موته ألا ندعو لك الطبيب فقال قد رآنى فقالوا فما قال لك قال قال لى انى فعال لما أريد والأولى حال موسى عليه السلام فإنه لما جاءه ملك الموت لطمه ففقأ عينه ولم يكن ذلك حبا منه للدنيا والعيش فيها ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه فكأنه قال لملك الموت أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور وأنا فى تنفيذ أوامر ربي

(٢٢٨/١)

وإقامة دينه فلما عرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فإن ربه أرسل إليه يخبره وكان أعلم الخلق بالله فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختار لقاء الله ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك فكان اختياره تابعا لاختيار ربه عز وجل فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبدا نبيا وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبدا نبيا اختار ما اختاره الله له فكان اختياره في جميع أموره تابعا لاختيار الله له ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذاك الوقت ووفي هذا المقام حقه ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق فلم يكن له اختيار في سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التي تقرر الأمر عليها فكان راضيا بما مختارا لها مشاهدا اختيار ربه لها وهذا غاية العبودية فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما بشره به في أول سورة الفتح حتى هنا الصحابة به وقالوا هنيئا لك يا رسول الله وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنأ به بشر صلوات الله وسلامه عليه

فصل ومما ينبغي أن يعلم أن كل حصة من حصال الفضل قد أحل

الله رسوله في أعلاها وخصه بذروة سنامها فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضا فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم افضل الطوائف احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم احتج به الداخلون في الدنيا والولايه وسياسة الرعيه لاقامة دين الله وتنفيذ أمره وإذا احتج به الفقير الصابر احتج به الغنى الشاكر وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها احتج به العارفون على فضل المعرفة وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم احتج به أرباب العز والقهر المبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبه والرزانة احتج به

(٢٢٩/١)

أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه وإذا احتج به المتورعون على الورع الحمود احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه فانه بعث لصالح الدنيا والدين وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالاسباب ولا ركن إليها احتج به من قام بالاسباب ووضعها مواضعها وأعطاها

حقها وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع وإذا احتج به من اخذ بالعفو والصفح والاحتمال احتج به من انتقم في مواضع الانتقام وإذا احتج به من أعطى الله ووالى الله احتج به من منع الله وعادى الله وإذا احتج به من لم يدخر شيئا لغد احتج به من يدخر لأهله قوت سنه وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والادم كخبز الشعير والخل احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه وإذا احتج به من سرد الصوم احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وإذا احتج به من رعب عن الطيبات والمشتهيات احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب وإذا احتج به من الان جانبه وخفض جناحه لنسائه احتج به من أدبهن وآلهن وطلق وهجر وخيرهن وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه احتج به من باشرها بنفسه فأجرو استأجر وباع واشترى واستسلف وادان ورهن وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء ومن يقبل امرأته وهو صائم وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي بالقدر احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة فإنه حبس في قهمة وعاقب في قهمة وأخبر عن نبي الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع

(٢٣٠/١)

اعترافها لصاحبيتها به فلم يحكم بالاعتراف الذي ظهر له بطلانه بالقرينة وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين أحدهما قال التوسع للحاكم أن يقول للشئ الذي لا يفعله أفعله ليستبين به الحق ثم قال الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن في حياته وبعده فقال على رضى الله عنه للمرأة التي حملت كتاب حاطب لتخرجن الكتاب أولا لاجردنك وحد عمر رضى الله عنه في الزنا بالحبل وفي الخمر بالرائحة وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته وقال لابن أبي الحقيق وقد زعم ان النفقة أذهبت كثر حيي بن أخطب العهد قريب والمال أكثر من ذلك فاعتبر قرينتين داليتين على بقاء المال وعاقبه حتى اقر به وجوز لأولياء القتل أن يخلفوا على رجل انه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها في اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه وشريعته طافحة بذلك لمن تأملها فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به فهو حجة لقضاة الحق وولاية العدل كما أنه حجة على قضاة السوء وولاية الجور والله المستعان

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به من الاغنياء الشاكرين وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها وبالله التوفيق

الباب الخامس والعشرون في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له

والقادرة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله والقلب عن التسخط والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعا على هذه الجملة فمنه الشكوى الى المخلوق فإذا شكى العبد ربه الى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه الى من لا يرحمه ولا تضاده الشكوى الى الله كما تقدم في شكاية يعقوب الى الله مع قوله

(٢٣١/١)

فصبر جهيل وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل الى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض للطبيب بشكايته وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه وقد كان النبي إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول كيف نجدك وهذا استخبار منه واستعلام بحاله

وأما الأئمة فهل يقدح في الصبر فيه روايتان عن الامام أحمد قال أبو الحسين أصحابهما الكراهة لما روى عن طاوس أنه كان يكره الأئمة في المرض وقال مجاهد كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أئمنه في مرضه قال هؤلاء وإن الأئمة شكوى بلسان الحال ينافي الصبر

وقال عبد الله بن الامام أحمد قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه أخرج إلي كتاب عبد الله بن ادريس فأخرجت الكتاب فقال أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم فأخرجت أحاديث ليث فقال اقرأ على أحاديث ليث قال قلت لطلحة إن طاوس كان يكره الأئمة في المرض فلما سمع له أئمة حتى مات فما سمعت أبي أن في مرضه ذلك إلى ان توفي والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر قال بكر بن محمد عن أبيه سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع فقال تعرف فيه شيئا عن رسول الله قال نعم حديث عائشة وأرأساه وجعل يستحسنه وقال المروزي دخلت على أبي عبد الله وهو مريض فسألته فتغرغرت عينيه وجعل يحبرني ما مر به في ليلته من العلة

والتحقيق أن الأئمة على قسمين انين شكوى فيكره وأئمة استراحة وتفريح فلا يكره والله أعلم وقد روى في أثر ان المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى وقال شقيق البلخي من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبدا

(٢٣٢/١)

فصل والشكوى نوحان شكوى بلسان القال وشكوى بلسان الحال ولعلها أعظمها

ولهذا امر النبي من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير فهذا امقت الخلق عند ربه

قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن زيد حدثنا كههمس عن عبد الله بن شقيق قال قال كعب الاحبار أن من حسن العمل سبحة الحديث ومن شر العمل التحذيف قيل لعبد الله ما سبحة الحديث قال سبحان الله وبجمده في خلال الحديث قبل فما التحذيف قال يصبح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنه بشر

فصل ومما ينافي الصبر في شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب

ياحدى اليدين على الأخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل ولهذا بريء النبي ممن صلق وحلق وخرق صلق رفع صوته عند المصيبة وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قال قتادة كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرا وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي قال ما كان من العين والقلب فمن الله والرحمة وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان وقاتل هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال قال رسول الله من بث فلم يصبر وقال خالد بن أبي عثمان مات ابن لي فرآني سعد بن جبير متقنعا فقال إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة وقاتل بكر بن عبد الله المزني كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة وقال عبيد بن عمير ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيء والظن السيء وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال القول السيء والظن السيء ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به من جزع الرجل

(٢٣٣/١)

من صبره فاجمعوا انه إذا ترك شيئا مما كان يصنعه فقد جزع وقال الحسين ابن عبد العزيز الحوري مات ابن لي نفيس فقلت لأمه اتقي الله واحتسبيه واصبري فقال مصيبي به أعظم من أن أفسدها بالجزع وقال عبد الله بن المبارك أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وإبنة في الموت فقال ابنك يقضي وانت تصلي فقال الرجل إذا كان له عمل يعمل فتركه يوما واحدا كان ذلك خللا في عمله وقال ثابت أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه ريحا فذكرت له ما رأيت فقال تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني ثم سقاني شربة يوم القيامة ما رايتها ثمنًا لتلك الشربة

ومما يقدح في الصبر اظهار المصيبة والتحدث بها وكتماها رأس الصبر وقال الحسن بن الصباح في مسنده حدثنا خلف بن تميم حدثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة وذكر أنه من بث الصبر فلم يصبر وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه من البر كتمان المصائب وما صبر من بث ولما نزل في احدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوما من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يرجف فقال انا لله وانا اليه راجعون فقال له لا تعلم بهذا أحدا وقد أقعد قبل ذلك اربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد وقال مغيرة شكى الاحنف الى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال ما تكرر على لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها الى أحد فصل ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة قال تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا

(٢٣٤/١)

وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري الهلع أفحش الجزع وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع وفي الحديث شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع
قلت هنا أمران أمر لفظي وأمر معنوي فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعا والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعا ولا يقال هالع له فإنه لا يتعدى ففيه وجهان أحدهما أنه على النسب كقولهم ليل نائم وسر كاتم ونهار صائم ويوم عاصف كله عند سيوييه على النسب أى ذو كذا كما قالوا تامر ولا بن والثاني أن اللفظه غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير
وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد ولا سيما اذا كان شحه هالما أى ملق له في الهلع وجبنه خالعا أى قد خلع قلبه من مكانه فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه كما يقال لا طعنة ولا جفنة ولا يطرد ولا يشرد بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفرع واذا أردت معرفة الهلوع فهو الذى اذا اصابه الجوع مثلا أظهر الاستجاعة واسرع بها واذا اصابه الالم اسرع الشكاية وأظهرها واذا اصابه القهر أظهر الاستطامه والاستكانه وباء بها سريعا واذا اصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية واذا بدا له مأخذ طمع طار اليه سريعا واذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا أفضال وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيستها في البدن واخفائها وتحقيرها والله المستعان

الباب السادس والعشرون في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل

جلاله وتسميته بالصبور والشكور ولو لم يكن للصبر والشكر من الفضيلة الا ذلك لكفى به

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تزيها له بصيغة المبالغة ففي الصحيحين من حديث
الاعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى عن النبي قال ما أحد أصبر على
أذى سمعه من الله عز و جل يدعون له ولدا وهو يعافهم ويرزقهم

(٢٣٥/١)

وفي أسمائه الحسنى الصبور وهو من أمثلة المبالغة أبلغ من الصابر والصابر وصبره تعالى يفارق صبر
المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة منها أنه عن قدرة تامة ومنها أنه لا يخاف الغوث والعبد انما
يستعجل الخوف الغوث ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما وظهور اثر الاسم في
العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه فعلى
قدر حلم العبد يكون صبره فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر ولهذا جاء اسمه الحليم في
القرآن في غير موضع ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله وكان الله عليما حليما والله عليم حليم
وفي أثر أن حملة العرش أربعة إثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك
وإثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك فإن المخلوق يحلم عن جهل
ويعفو عن عجز والرب تعالى يحلم مع كمال علمه ويعفو مع تمام قدرته وما أضيف شئ الى شئ أزين من
حلم الى علم ومن عفو الى اقتدار ولهذا كان في دعاء الكرب وصف سبحانه بالحلم مع العظمة وكونه
حليما من لوازم ذاته سبحانه

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسيبتهم له سبحانه وأنواع معاصيهم وفجورهم فلا
يزعجه ذلك كله الى تعجيل العقوبة بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه حتى اذا
لم يبق فيه موضع للصنيعه ولا يصلح على الامهال والرفق والحلم ولا ينيب الى ربه ويدخل عليه لا من
باب الاحسان والنعم ولا من باب البلاء والنقم أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الأعداء اليه وبذل
النصيحة له ودعائه اليه من كل باب وهذا كله من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول
وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها فتأمل فإنه
فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعشره وقل من تنبه له ونبه عليه وأشكل على كثير منهم هذا الاسم
وقالوا لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحا ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه ولو
أنهم أعطوا هذا

(٢٣٦/١)

الاسم حقه لعلمو أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين وأن التفاوت الذى بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذى بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم وكذا سائر صفاته ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة وهو صبر من أعظم مصبور عليه فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومن احسانه فوق كل احسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته الى كل ما لا يليق به والقدر فى كماله وأسمائه وصفاته والإلحاد فى آياته وتكذيب رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتيم والأذى وتحريق أوليائه وقتلهم واهانتهم أمر لا يصبر عليه الا الصبور الذى لا أحد اصبر منه ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم الى آخرهم الى صبره سبحانه

واذا اردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا وقوله وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتختر الجبال هذا أن دعوا للرحمن ولدا وقوله وان كان مكرهم لتزول منه الجبال على قراءة من فتح اللام فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والارض فالحلم وامساكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه وفى الآية اشعار بأن السموات والارض قتم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتى به العباد فيمسكها بحلمه ومغفرته وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى فالذى عنه الامساك هو صفة الحلم والامساك هو الصبر وهو حبس العقوبة ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمل

وفى مسند الامام أحمد مرفوعا ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلق كرة التراب بالطبع ولكن الله

(٢٣٧/١)

يمسكه بقدرته وحلمه وصبره وكذلك خروار الجبال وتفطير السموات الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه فإن ما يأتى به الكفار والمشركون والفجار فى مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك فجعل سبحانه فى مقابلة هذه الاسباب اسبابا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه تقابل تلك الاسباب التى هي سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الاسباب وقاومتها وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها اياه فغلب اثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب ولهذا

استعاذ النبي بصفة الرضا من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ثم جمع الامرين في الذات اذ هما قائمان بما فقال أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه فهو الذى أذن في وقوع الاسباب التى يستعاذ منها خلقا وكونا فمنه السبب والمسبب وهو الذى حرك النفس والابدان وأعطاها قوى التأثير وهو الذى أوجدها وأعدها ومدّها وسلطها على ما شاء وهو الذى يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها فتأمل ما تحت قوله أعوذ بك منك من محض التوحيد وقطع الالتفات الى غيره وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده وافراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير وهو الذى يمس بالضر بمشيئته وهو الذى يدفعه بمشيئته وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته وهو المعيد من فعله بفعله وهو الذى سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به فاذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم ارضاه تسبيح ملائكته وعبادة المؤمنين له ومحمدهم اياه وطاعتهم له فيعيد رضاه من غضبه قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والارض من نور وجهه وان مقدار يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة فتعرض عليه أعمالكم بالامس أول النهار اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجذونه ينقل عليهم فتسبحه حملة العرش وسراقات العرش والملائكة المقربون وسائر

(٢٣٨/١)

الملائكة حتى ينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شئ الا يسمع فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلى الرحمن رحمة فتلك ست ساعات قال ثم يؤتى بالارحام فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله تعالى هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء ويهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا واناثا ويجعل من يشاء عقيما فتلك تسع ساعات ثم يؤتى بالارزاق فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقوله كل يوم هو فى شأن قال هذا شأنكم وشأن ربكم رواه أبو القاسم الطبراني فى السنة وعثمان بن سعيد الدارمى وشيخ الاسلام الانصارى وابن مندة وابن خزيمة وغيرهم ولما ذكر سبحانه فى سورة الانعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر فى أثر ذلك شأن خليله ابراهيم وما اراه من ملكوت السموات والارض وما حاج به قومه فى اظهار دين الله وتوحيده ثم ذكر الانبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ثم قال فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين فأخبر أنه سبحانه كما جعل فى الارض من يكفر به ويجحد توحيده ويكذب رسله كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به ويحفظ من حرمانه ما أضاعوه وبهذا تماسك العالم

العلوى والسفلى والا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والارض ومن فيهن ولخرب العالم ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الاسباب الممسكه له من الارض وهى كلامه وبهينه ودينه والقائمون به فلا يبقى لتلك الاسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها ولما كان اسم الحليم أدخل في الاوصاف واسم الصبور في الافعال كان الحلم أصل الصبر فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور والله أعلم فصل
وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة وفي القرآن تسميته شاكرًا قال الله تعالى وكان الله شاكرًا عليهما وتسميته أيضا شكور قال الله تعالى والله

(٢٣٩/١)

شكور حليم وقال تعالى إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ويغفر له إذا تاب إليه فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لاساءته انه غفور شكور
وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور بل هو الشكور على الحقيقة فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ويشكر الحسنة بعشر أمثالها الى أضعاف مضاعفة ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى ويلقى له الشكر بين عبادته ويشكره بفعله فإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة وهو الذى وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له اذ شغلته عن ذكره فاراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الارض يتبوا منها حيث يشاء ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرا خضرًا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكّل من ثمارها الى يوم البعث فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأباهم ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبواهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار
ومن شكره سبحانه أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمل من الاحسان وهو من أبغض خلقه اليه ومن شكره أنه غفر للمرأة البغي بسقيها

كلبا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى وغفر لآخر بتتحيته غصن شوك عن طريق المسلمين فهو سبحانه يشكر العبد على احسانه لنفسه والمخلوق انما يشكر من أحسن اليه

(٢٤٠/١)

وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذى أعطى العبد ما يحسن به الى نفسه وشكره على قليله بالاضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان العبد اليها فهو المحسن بإعطاء الاحسان وإعطاء الشكر فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه

وتأمل قوله سبحانه ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما كيف تجدد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى اضاعة سعيهم باطلا فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسئ وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه مالا يطيقه ثم يعذبه على مالا يدخل تحت قدرته تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا فشكره سبحانه يقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله وذلك من لوازم هذه الصفة فهو مزره عن خلاف ذلك كما يتره عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحده

ومن شكر سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عليه هذا القدر ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقاما يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته اليه فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته الا هالك فإنه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ويشكر القليل من العمل

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه اليه من اتصف بصفة الشكر كما أن أبغض خلقه اليه من عطلها واتصف بضدها وهذا شأن اسمائه الحسنى أحب خلقه اليه من اتصف بموجبها وأبغضهم اليه من اتصف باضدادها ولهذا يبغض الكفور الظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللتيم وهو سبحانه جميل يحب الجمال عليم يحب العلماء رحيم يحب الراحين محسن يحب المحسنين شكور يحب الشاكرين صبور يحب الصابرين جواد يحب أهل الجود ستار يحب أهل الستر قادر يلوم على العجز والمؤمن القوى أحب اليه من المؤمن الضعيف عفو يحب العفو وتر يحب الوتر وكل ما يحبه فهو من آثار اسمائه وصفاته وموجبها وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافىها

(٢٤١/١)

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة قد رفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير فما ابقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير ما المعول إلا على عفوه ومفغرتة فكل أحد إليهما فقير أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور ما تساوى أعمالك لو سلمت مما يطلها أدنى نعمة من نعمه عليك وأنت مرتين بشكرها من حين أرسل بها إليك فهل رعتها بالله حق رعايتها وهي في تصرفك وطوع يديك فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح انه غفور شكور فنج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها وحذره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها وقال إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر إن ربنا لغفور شكور أزاح عن العبد العلل وأمره أن يستعيز به من العجز والكسل ووعد أنه يشكر له القليل من العمل ويغفر له الكثير من الزلل إن ربنا لغفور شكور أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه ووعد على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه وأن يغفر له خطاياها إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه إن ربنا لغفور شكور وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها ووسع الخلائق عفوه ومفغرتة ورزقه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها إن ربنا لغفور شكور يجود على عبيده بالنوافل قبل السؤال ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلق به منهم الآمال ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال إن ربنا

(٢٤٢/١)

لغفور شكور ارحم بعباده من الوالدة بولدها وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة اذا وجدها وأشكر للقليل من جميع خلقه فمن تقرب إليه بمشقال ذرة من الخير شكرها وحمدها إن ربنا لغفور شكور تعرف الى عبادته بأسمائه وأوصافه وتحب اليهم بحلمه وآلائه ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه إن ربنا لغفور شكور السعادة كلها في طاعته والأرباح كلها في معاملته والخن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته إن ربنا لغفور شكور أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه ان رحمته تغلب غضبه إن ربنا لغفور شكور يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له حتى

كأنه لم يكن قط من أهله ان ربنا لغفور شكور الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسابان والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والارض الى آخر الزمان ان ربنا لغفور شكور بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ويمينه ملاءى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ان ربنا لغفور شكور لا يلقي وصاياه الا الصابرون ولا يفوز بعطاياه الا الشاكرون ولا يهلك عليه الا الهالكون ولا يشقى بعذابه الا المتمدون ان ربنا لغفور شكور

فإياك أيها المتمرد أن ياخذك على غرة فإنه غيور وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور وبشراك ايها التائب بمغفرته ورحمته أنه غفور شكور من علم أن الرب شكور تفوق في معاملته ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم يئأس من رحمته ان ربنا لغفور شكور من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سار اليه بأسمائه الحسنى وصل اليه ومن أحبه أحب أسمائه وصفاته وكانت أثر شئ لديه حياة القلوب في معرفته ومحبه وكمال الجوارح في التقرب

(٢٤٣/١)

إليه بطاعته والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته فأهل شكره أهل زيادته وأهل ذكره أهل مجالسته وأهل طاعته أهل كرامته وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته إن تابوا فهو حبيبهم وإن لم يتوبوا فهو طيبهم يتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب انه غفور شكور والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدا يملا السموات والارض وما بينهما وما شاء ربنا من شئ بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم عدد ما حمد الحامدون وغفل عن ذكره الغافلون وعدد ما جرى به قلمه واحصاه كتابه واحاط به علمه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد واله وصحبه اجمعين وعلى سائر الانبياء والمرسلين ورضى الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

(٢٤٤/١)
